

نجيب محفوظ

شكر الحاصل

(مكتبة مصر)

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

To: WWW.AL-MOSTAFA.COM

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

شهر العسل

الناشر
مكتبة مصر
٢ شارع كامل صديق - الفيحانة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

شعر العسل

تهلل وجههما بالرضى وهما يدخلان . وقفا تحت النجفة الصغيرة يلقيان نظرة
شاملة على الحجرة . وقاسا بعين دقيقة المسافة بين الكنبه الرئيسيه والصوان
الجامع للراديو والتلفزيون . ونظرا إلى الفريجدير القائم في الركن بشيء من الفتور
إذ كانا يتمنيان لو اتسعت له حجرة السفر . قال باسم وهو يختال في بذلته
الجديدة :

- مباركة عليك الشقة الجديدة يا حبيبتى .
- مباركة عليك يا حبيبى .
- يتجلى ذوق والدتك في تنسيقها البديع .
- ولا تنس دور ذوق في ذلك .
- فلثم خدها وهو يضحك ثم قال :
- شقة لقطة !
- حقيقة ..
- ترى أين أم عبد الله ؟
- لعلها في المطبخ أو الحمام ..
- ترينها يا عزيزتى أهلا للثقة ؟
- كل الثقة ، لم تفارق ماما منذ كانت في العاشرة .
- ستقيم في شقتنا أكثر منا ، وستدير جميع شئونها ، أما نحن فلن نهأ بها إلا
حين الراحة والنوم ..
- ندر بين أمثالنا من الأزواج العاملين من ظفر بمديرة بيت مثلها .
- أى بهجة لشقة جميلة كهذه بدون مديرة ؟
- هذه هي الحقيقة ، هي في ذات الوقت مشكلة ، ولكن ..
- وجعلت تشمم الهواء في قلق وتتساءل :

— ألا تشم رائحة غريبة ؟

— رائحة غريبة ؟

وراح يتشم بدورة ثم قال :

— أجل .. ثمة رائحة غريبة ..

— رائحة طيخ ..

وقاما بجولة تفتيش في الأركان ، تحت المقاعد ، تحت الكنية ، وصاح الشاب باستنكار :

— توجد حلة تحت الكنية ..

— حلة ؟

أخرجها الشاب بوجه متفزز وهو يتمتم :

— حلة طيخ في حجرة الجلوس !

— وهو طيخ حامض ، ما معنى ذلك ؟

— شيء لا يتصوره العقل ..

وصفق يديه بشدة ونرفزة . وصاحت الفتاة :

— أم عبد الله !

ترامى إليهما وقع أقدام ثقيلة . دخل رجل قصير بدين مصبوب في كتلة قوية كأنه برميل . غليظ الرأس والوجه والعنق كأنه مصارع محترف ، ومن عينيه الغائرتين تنبعث نظرة جامدة بليدة . وقف في بنطلونه التراي وقميصه الأسود وحذائه المطاط ، ينظر إليهما بيلادة وعدم اكتراث . صرخت في عينيها نظرة ذاهلة غير مصدقة . تبادلتا نظرة سريعة ثم عادا للحملقة في وجهه البليد . وسألته الفتاة :

— من أنت ؟

لم يجب . كأنه لم يسمع . سأله الشاب بصوت رنان :

— من أنت ؟

فنظر إلى الشاب مليا ثم تتم بهدوء بارد :

— أنا ابن أم عبد الله ..

— ومن أذن لك بدخول الشقة ؟

— استدعيتي لأحل محلها في أثناء غيابها .

— أليست في الداخل ؟

— سافرت إلى طنطا لحضور مولد السيد .

— متى سافرت ؟

— صباح اليوم ..

فقالت الفتاة باستياء :

— لكنها لم تستأذن منا ، بل ولم تخطرنا ..

فجعل ينظر بيلادة وعدم اكتراث حتى سأله الشاب :

— ومتى ترجع ؟

— لا أدري .

— وماذا كنت تفعل ؟

— لا شيء ..

— ماذا تعرف من شئون المنزل ؟

— لا شيء .

— ألك حرفة تتعيش منها ؟

— كلا .

— وكيف تعيش ؟

— آكل وأشرب وأنام .

فنفخ الشاب في يأس ، ثم سأله :

— ولم استدعتك أمك إذا كنت لا تحسن شيئا ؟

— لأحل محلها في أثناء غيابها .

— ولكنها تقوم هنا بكل شيء .
 — قالت لي ابق هنا حتى أرجع .
 لوى الشاب شفتيه امتعاضا . أشار بحدته إلى الحلة ، وسأله :
 — ألم تر هذه الحلة من قبل ؟
 فنظر الرجل إليها في بلاهة وقال :
 — لا أتذكر .
 — ألم تأكل من الكرنب ؟
 — أكلت ..
 — في هذه الحجرة ، أليس كذلك ؟ ..
 — لا أتذكر !
 — ثم دفعت بها تحت الكنية ؟
 فقال في ابتهاج طاريء :
 — بخشنا عنها طويلا ..
 فنفخ الشاب في غيظ وقال :
 — لا جدوى من الكلام ، على أى حال تفضل غير مطرود !
 فاستدار ليرجع من حيث أتى ولكن الشاب استوقفه ثم أشار إلى زدهة مفضية
 إلى الباب الخارجى ، فمضى الرجل نحوها بشكل آلى ، غاب قليلا ثم رجع وهو
 يقول :
 — ذاك الباب يؤدي إلى الخارج !
 — أعرف ذلك .
 — أظن دنى ؟
 — لا حاجة بنا إليك ؟
 — قالت لي ابق حتى أرجع .
 — ولكنى صاحب الشقة !

— أنا لا أعرف إلا أمى !
 فصاحت الفتاة :
 — أتريد أن تبقى بالقوة ؟
 فقال بثقة :
 — سأبقى حتى ترجع .
 — ولكننا لا نريدك .
 — سأبقى حتى ترجع .
 فذهلت الفتاة ونظرت صوب زوجها . شعر الفتى بأنه مطالب بأداء واجب
 فوق احتماله . وبدأ أمام الرجل كفصن طرى حيال جذع شجرة بلخ . واحتدم
 غضبا فصاح بالرجل :
 — اذهب في الحال .
 — قالت لي ابق حتى أرجع !
 — اغرب عن وجهى بلا مناقشة .
 — لن أذهب ، اذهب أنت إذا شئت !
 أعماه الغضب فانقض على الرجل ودفعه بكل قوته . لم يتأثر الرجل أقل تأثر
 ودفعه بكتفه دفعة بسيطة فانقذف الشاب إلى أقصى الحجرة متعثرا في طريقه
 بخوان فسقطا سويا . نهض بسرعة لاعنا ولكنه كف عن تجربة قوته . واندفعت
 الفتاة نحو النافذة المطلة على الطريق ففتحتها على مصراعها وراحت تصوت بأعلى
 صوتها مستغيثة . وإذا بأصوات ترتفع لاعنة في غضب ، وإذا بالطوب يتهاول على
 النافذة ويمرّق بعضه إلى داخل الحجرة حتى تنحت الفتاة والفتى في ركن آمن وهما
 مذهولان .
 تساءلت وهى ترتجف :
 — ماذا جرى للناس ؟
 — يقدفوننا بالطوب بدلا من إغاثتنا !

والرجل الغليظ لم يسكت . تقدم خطوات فتناول الخوان المقلوب وجرى نحو النافذة فرمى به منها بأقصى قوته ، ثم أغلق النافذة ! صاح الشاب :

— ماذا فعلت ؟

فعاد إلى موقفه وهو يقول :

— طيلة الوقت تبادلنا الضرب .

— الضرب ؟

— وانتصرت عليهم دائما !

فسأله الفتاة بحق :

— كيف جعلت من شقتي ميدان قتال ؟

— الحق عليهم ، كلما ظهرت في نافذة بادروني بمعاكساتهم ، اضطرت إلى قذفهم بالأطباق فقفذوني بالطوب ..

— لقد جعلت من أهل الطريق أعداء لنا !

— لا يهلك .

— ألا ترى أنك تتصرف في الشقة كما لو كانت ملكك الخاص ؟

— الحق عليهم كما قلت لك .

— إنك تبديد الأشياء الثمينة وتعرضنا للخراب .

— أهذا جزاء من يدافع عن شقتك ؟

— يا سيدي تشكر ، ما نريد منك إلا أن تذهب بسلام !

هز منكبيه العريضين ثم ذهب إلى الردهة المفضية إلى الباب الخارجى .. لكنه لم يلبث أن عاد فرفع الحلة في هدوء ومضى بها إلى الداخل . همست الفتاة :

— النجدة !

انتقل الشاب إلى التليفون ورفع السماعة ، جعل ينقر عليه ، ثم أعادها غاضبا وهو يقول :

— حرارته مفقودة !

— ربه !

— لعله عبث به ، ومن يدري فلعله عبث بالراديو والتلفزيون أيضا ..

— كارثة حلت بشقتنا الجديدة ، ولكن لا بد من عمل شيء ..

— فلنذهب سويا إلى نقطة الشرطة ..

— قد ينتقم من الشقة في غيابنا ..

— لا بد مما ليس منه بد ..

مضيا معا نحو الباب الخارجى ولكنهما رجعا وهو يقول :

— أغلق الباب بالمفتاح !

ومضى يفتش عن المفتاح حيث وضعه على ترابيزة صغيرة فلم يجده .. تتم :

— ليس الوحش غيبا كما تصورت ..

— لقد سجننا .

— حتام نمضى في السجن تحت رحمته ؟

— ذلك لا يمكن أن يقع ولا في الخيال !

وإذا بدفقة مروعة من أصوات عشرة مختلفة المصادر تنقذف من ناحية المطبخ . وقع أقدام ، ارتطام بجدران ، سقوط أوعية ، تحطيم آنية ، صيحات وعيد . وقبل أن يفيق الزوجان من الصدمة الجديدة اندفع الرجل الغليظ مشتبكا مع آخر في مثل حجمه إلى الحجرة وهما يتصارعان . تصارعا بعنف ووحشية وكل منهما يحاول قهر الآخر . فمرة هذا تحت الآخر ومرة العكس . حتى تمكن الرجل الغليظ من غرس الآخر تحته دون أن يدع له فرصة للإفلات أو الحركة ، ثم هتف بصوت جذلان :

— فيفا فلا !

ونفض فنهض الآخر . تصافح الاثنان كما يتصافح متباريان عقب مباراة عادلة . وانتبها إلى الزوجين فجعلتا ينظران إليهما بيلادة وبرود . وحل صمت ثقيل كالاحتناق . ثم خرج الشاب من ذهوله فأشار إلى الرجل الجديد وسأل أين

المديرة :

— من هذا ؟

— صديق !

— أكان موجودا معك من قبل ؟

— نعم ..

— هل علمت أمك بوجوده ؟

— كلا .

— وكيف تدعوه إلى شقة آخرين ؟

— دعوته لأنني لا أحب الوحدة ، ولتواصل تدريبتنا ..

— آتت رجل عاقل ؟

— نحن نتصارع في الموالد ولا غنى لنا عن التدريب المستمر ..

— لعلك توهمت أنك صاحب الشقة !

— أنا لا أحب الإقامة في البيوت !

فقالت الفتاة :

— إذن غادر بيتنا مصحوبا بالسلامة !

— قالت لي ابقى حتى أرجع ..

فقال الشاب :

— نحن على استعداد للذهاب فلم أغلقت الباب بالمفتاح ؟

— حتى ترجع أمي من الموالد ..

— ولكننا نريد أن نذهب ..

— إلى أين ؟

— ياله من سؤال ، ألسنا أحرارا ؟

— من أدراي أنكما صاحبا الشقة الحقيقيان ؟

— أبدأ خلك شك في ذلك ؟

— يجب أن تبقى معنا حتى ترجع أمي من موالد السيد .

فعض الشاب على أسنانه من الغيظ وقال :

— على الأقل يجب أن تلتزم بالنظام !

فأشار الرجل الغليظ إلى زميله قائلا :

— أراد أن يجرب قوته معي وقد رأيت النتيجة بنفسك !

— حسبكما ما كان من ضجيج وتخريب .

— لن يأتيك من ناحيتنا بعد ذلك إلا الطرب !

— أريد الهدوء الشامل الكامل ..

— ألا تحب الغناء والرقص ؟

— الغناء والرقص !

— معنا في المطبخ راقصة وبعض أفراد الجوقة !

فصاح الزوجان معا :

— ماذا تقول ؟!

— إنهم من الزملاء الموثوق بهم ..

— لقد جعلت من الشقة ساحة مولد !

— لم تعقدان الأمور بلا سبب ؟

— كل ذلك وتقول بلا سبب ؟!

— ما كنت أتصور وجود ناس يكرهون الناس والطرب بهذه القوة !

ورفع منكبيه العريضين استهانة ، ثم تأبط ذراع صاحبه ، ومضى به إلى

الداخل . وجعلا يتبادلان النظر في غضب ويأس حتى ترامى إليهما دق دف

وعرف مزمار وإيقاع رقص ، وما لبثت الحناجر الخشنة أن غنت بغرابة :

يا زرمباحه يا زرمباحه خواتمك ستنة وقداحه

هتفت الفتاة :

— سأجن إن لم أكن جنت بالفعل .

- ومضى الشاب نحو النافذة بتصميم فقالت له محذرة :
 — الطوب !
 — لعلهم ذهبوا ..
 ثم وهو يمسك بمقبض الضلفة :
 — علينا أن نوصل صوتنا إلى الناس !
 ولكن ما كادت الضلفة تتحرك حتى انهال الطوب عليهما كالرصاصة
 أغلقها مرة أخرى وهو يسب ويلعن . وتساءل فيما يشبه التنهد :
 — غلبنا على أمرنا ؟
 فتمتمت :
 — إنه كابوس قاتل ..
 — ولكن لا بد أن يوجد مخرج .
 — أجل ، يجب أن يوجد مخرج .
 — ولكن ما هو ؟
 وتفكر قليلا ثم تساءل :
 — لنسأل أنفسنا ماذا نريد ؟
 — أظننا جئنا ونحن نعلم بقضاء شهر عمل سعيد !
 — ولكن عاقنا عن ذلك وجود أولئك الشياطين .
 — فعلينا أن نتخلص منهم .
 — طيب ، فلنفكر كيف يمكن التخلص منهم .
 — الباب مغلق ، التليفون معطل ، النافذة ينال عليها الطوب .
 — إذن فلا مفر من الاعتماد على أنفسنا !
 — ولكننا دونهم في القوة بما لا يقاس !
 — ولكن هنالك الحيلة .

- أجل .. الحيلة .
 — هل يسعنا حبسهم في المطبخ ؟
 — يلزمنا معاينة المكان هنالك .
 — سأذهب لصنع فنجال قهوة ..
 ودون تردد غادر الحجرة . ثم رجع بالقهوة فسأله بلهفة :
 — ماذا وجدت ؟
 فقال بضيق :
 — باب المطبخ مفتوح والزمار جالس على الأرض مسند الظهر إليه ، ولكن لم
 يمت الأمل .
 — حقا ؟
 — اختلست مفتاح المطبخ من فوق الرف .
 — ألم تعثر على مفتاح الشقة ؟
 — ليس الرجل بالغباء الذي نتصوره ولكنهم ...
 — ولكنهم ؟ ..
 — يجرعون النبيذ بإفراط !
 — ننتظر حتى يفقدوا الوعي ؟
 — أجل ..
 — لكنه سلاح ذو حدين !
 — أجل ، قد يزدادون جنونا ، ولكن إذا غلبهم النوم فسوف يتساوون
 بالأموات .
 — علينا أن ننتظر الليل .
 — وليس الليل يبعد !
 تنهدت في ضيق شديد متسائلة :
 — متى ترجع أم عبد الله ؟

— ذاك يتوقف على انتهاء المولد .
 — أليدك فكرة عن تاريخ الليلة الكبيرة ؟
 — لا فكرة عندي عن المولد .
 راحت الفتاة تذرع الحجرة مخنية الرأس تحت هم ثقيل . حانت منها التفاتة إلى ما وراء الفريجدير فشد بصرها شيء ما . اقتربت منه ممعنة النظر ، ثم قالت باستغراب :
 — أرفف الفريجدير مخلوعة ومطروحة أرضا وراءه !
 وانتقلت إلى باب الفريجدير فجذبه . وإذا بكثلة بشرية تندلق من داخله منكفئة على وجهها فوق الأرض .
 صرخت الفتاة مجنون وهي تترغ . وثب الشاب إليها فلقاها بين ذراعيه .
 تفحص الكثلة المطروحة بذهول ، اغنى فوقها حتى رأى الوجه ، ثم هتف :
 — أم عبد الله !
 أجلس الفتاة على مقعد ورجع يفحص المرأة ويجسها ثم تتم بذهول :
 — جثة هامدة !
 واقتحم الحجرة الرجل الغليظ وجوقته وهو يقول بنبرة انتقاد :
 — ألا تكفان عن الضوضاء ؟
 وتابع عنيهما بصره حتى استقر على الجثة المنكفئة فتساءل :
 — ما هذا ؟
 ولما لم يسمع جوابا صاح بغضب مخاطبا الشاب :
 — أجب !
 فقال الشاب بغضب كظيم :
 — إنها جثة ..
 — جثة ؟؟
 — نعم .

— أمي شقة أم مقبرة ؟
 — كانت شقة فأصبحت مقبرة ..
 — أين وجدتها ؟
 — في الفريجدير .
 فقال المصارع الآخر بيلامة :
 — إنهما يتغذيان على لحوم البشر .
 فقال الشاب بحدة :
 — لقد قتلت ثم دفنت في الفريجدير .
 فسأله الرجل الغليظ وعينه تلتمعان بالسكر .
 — وماذا حملك على قتلها ؟
 — لقد قتلت من قبل وصولنا إلى شقتنا .
 — فمن الذي قتلها في رأيك ؟
 — دعني أسألك أنت فقد كنت قابعا هنا من قبل أن نحضر .
 فالتفت الرجل إلى أفراد جوقته وسألهم :
 — ما رأيكم في مكابرة هذا الرجل ؟
 فقال الزمار :
 — يقتل القتل ويسأل عن قاتله ..
 وقال الطبال :
 — إنه مجنون ، لا بد أن يكون مجنونا من يرتكب جريمة كهذه .
 وقالت الراقصة :
 — ودفنها في الفريجدير على أمل أن تتحول إلى ديك رومي !
 فقال الشاب مخاطبا الرجل الغليظ :
 — انظر إلى وجه الجثة .
 — لا تهمني معرفته .

— إنها جثة أمك !

فضجت الجوقة بالضحك فصاح الشاب :

— إنها جثة أم عبد الله .

فقال الرجل الغليظ بصوت ملتبس :

— أمي ذهبت إلى مولد السيد !

فأشار الشاب إلى الجثة وسأله في هياج :

— أليست هذه بأمك ؟

قالت الراقصة :

— كانت أمه يا مجرم ..

وقال الزمار :

— أمه ذهبت إلى مولد السيد .

وقال الطبال :

— إنه يدعى الجنون ليفلت من العقاب .

وصاح الرجل الغليظ :

— كيف تنبش القبر لتعيث بالجلث !؟

فهتف الشاب :

— لن تفلتوا من يد العدالة .

فقال الزمار :

— تقتل مدبرة بيتك ، يا لك من وغد خسيس .

وقالت الراقصة :

— قتلها كيلا يدفع لها أجرها .

وقال له الرجل الغليظ :

— الويل لك أيها المجرم .

فصاح الشاب متحمدا :

— أهذا ظنكم حقا ؟ .. إذن فاستدعوا الشرطة !

فضجوا بالضحك ، وقال الرجل الغليظ :

— نحن الشرطة ونحن القضاة ..

فقالت الراقصة :

— فلنقدمه إلى المحاكمة ..

فقال الرجل الغليظ :

— بعد أن نفرغ مما كنا فيه .

وتعالى هتافهم في حبور ، ثم غادروا الحجرة وراء الرجل . أغمض الشاب

عينيه إعياء . تجنب النظر نحو عروسه المنطرحة فوق المقعد . رفع الجثة من الأرض

فأرقدها فوق الكنية وغطى وجهها بخمار كان معقودا حول رقبتها . انتقل إلى

فتاته متمتا :

— كيف حالك ؟

فقال بصوت ضعيف :

— سيقضون علينا قبل أن نقضى عليهم .

— من العسير أن يتخيل إنسان ماذا تكون خطوبتهم التالية فهم لا يخضعون

لنطق .

— علينا أن نجد حلا سريعا .

— وأن نتوقع ما يخطر بالبال وما لا يخطر .

— لن يتركونا أحياء .

فقال محتدما بالغضب :

— إذا لم يكن من الموت بد !

فهمست :

— هذا جميل ، ولكننا نفضل ألا نموت .

— ولا أحد يريد أن يموت ، من رأيي أن تستريح قليلا في حجرة النوم .

- وأنت ؟
- لا أكف عن التفكير ، وأردد في نفسي بلا انقطاع : إذا لم يكن من الموت بد !
- هل يحاكمونك حقا ؟
- لن يتورعوا عن شيء .
- إنه الكابوس .
- وربما قتلوني كما قتلوا المرأة الطيبة .
- ترى أهي أمه حقا ؟
- لن يغير من الأمر شيئا .
- فقلت بإصرار :
- يجب ألا نموت كالأغنام .
- حتى الموت ، يجب أن ندافع عن أنفسنا حتى الموت ، وأن ندخر لهم ضربة مذهلة إن أمكن .
- أريد أن أفعل شيئا ذا بال أكثر من مجرد انتظار نتيجة معركة .
- فكرى ، فكرى لحسابك ، نحن في موقف لا يجوز لأحدنا فيه أن يدعى وصاية على آخر .
- أعترف لك بأننى أتغلب على الخوف بقوة لم تكن متوقعة .
- الموقف أكثر من الخوف .
- هذا حق .
- والحرص على الحياة خليف بأن يضيع الحياة .
- قول جميل .
- يجب أن تكون لنا القوة لتنفيذه ، هذه هي مشكلة الأقوال الجميلة .
- ألدبك خطة جديدة ؟
- لا أكف عن التفكير .

- وأنا أيضا .
- المهم قوة العزيمة إذا وفقنا إلى خطة .
- مهما يكن من عواقبها ..
- وهي تنهد :
- كنت أحلم بشهر غسل بديع .
- انبذى الأحلام التى تضعف الهمم .
- طيب .
- استريحى قليلا فى حجرة النوم .
- أخشى أن يلاحظوا اختفائى إذا قدموا .
- إنهم سكارى وهم يقصدوننى أولا .
- قامت . قبلته . مضت إلى حجرة النوم .
- ومضت فترة قصيرة ثم دخل الرجل وجوقته . لمعت أعينهم بوهج الخمر وشعت أسابيرهم شرا .
- وقفوا حيال الشاب على هيئة نصف دائرة مركزها الرجل الغليظ . أشار الرجل إلى الجنة وسأل :
- من قتل هذه المرأة ؟
- فأجابت الجوقة فى نفس واحد :
- أنت يا معلم !
- ضحك وضحكوا . ثم سأل :
- هم تحكمون على ؟
- فأجابوا :
- بالسلامة .
- فضحك وضحكوا . ثم سأل :
- من الذى انتهك حرمة الجنة ؟

فأشاروا إلى الشاب وقالوا :

— هذا المجرم .

— بم تحكمون عليه ؟

— بالإعدام .

فرمى الشاب بنظرة وسأله :

— هل لديك ما تدافع به عن نفسك ؟

فلم يجب . نقل بصره بين الجمع بسرعة وتحفز وانتباه . وتوثبت الجوقة للانتفاض لدى أول إشارة .

عند ذاك دوت صرخة فظيعة في حجرة النوم ، اندفعت الفتاة إلى الحجرة وهي تصيح :

— رجل في صوان الملابس !

وحثف كثيرون في دهشة :

— رجل !

وظهر الرجل في مدخل الحجرة . عملاق ينطق وجهه البرنزي بالقوة والتحدى والاستهتار . تبادلوا نظرات ذاهلة ، وغاضبة ، وتأهبوا للعواقب .. لم يد في وجه القادم الجديد أى ارتباك ولا خوف . بل تساءل بصوت أجش :

— من أنتم ؟ وماذا جاء بكم إلى هنا ؟

فسأله الشاب بدوره :

— من أنت ؟ وماذا جاء بك إلى هنا ؟

أجاب العملاق ببساطة :

— إني في بيتي !

— بيتك !... لكنه بيتي ، ونمت يدي ما يشي ذلك .

— لا أحب المنذر ، إنه بيتي وكفى .

فقال الرجل الغليظ بحقد :

— دجال ، أنت لص منازل حقير ، سأذكر فوراً متى رأيتك أول مرة ..

— صه أنها البهلوان ولا حطمت أضلعك !

— أنت تقول ذلك يا لص المنازل ؟

— مصارع موالد زائف ، المصارعة الحقيقية شيء آخر ، إني أعرفكم أيها

المهرجون ..

فقال له الشاب :

— هذا بيتي ، وأنت لص كالأخرين ..

— أنت تهذي ..

— سيحكم بيننا القانون ..

— سأقذف بك من النافذة ، هذا هو القانون الذى أعترف به ..

فسأله الفتاة :

— إذا كنت صاحب البيت كما تزعم فلم أخفيت نفسك في صوان الملابس ؟

— أنا حر في بيتي ، أرقد حيث يطيب لى .

— لا أحد يرقد في صوان الملابس .

— إنه خلوقى المفضلة ولست مسئولاً أمام أحد .

فقال الرجل الغليظ :

— أنت لص ، لص منازل حقير ، إني أعرفك .

— انخرس أيها المهرج الحقير .

فقال الشاب :

— لنذع الشرطة ولنترك لها الفصل فى الأمر .

فقال العملاق بوضوح :

— لا أحب الشرطة .

فقال الشاب غاضباً :

— فأنت لص كما قال هذا القاتل .

— القاتل ؟! هل قتل أحدا هذا المهرج ؟

— ها هي جثة ضحيته !

فمد العملاق بصره إلى الجثة وقال بدهشة :

— أى تقدم أحرزته يا مهرج الموالد !

— هي أمه أيضا !

— قاتل أمه !... هذا شرف لا تستحقه أيها المهرج ، من أين جاءك هذا الشرف ؟.

فقال الرجل الغليظ بحنق :

— يا لص المنازل ، احذر إثارة الزلازل !

فقال العملاق ساخرا :

— أهلا بالزلازل ، هي دواء موصوف لصحتي !

في أثناء ذلك مضت الفتاة تتسلل ناحية المطبخ .. خطوة فخطوة وعين الفتى

تلحظها بقلق . وغطى على تحركاتها بتوجيه الخطاب إلى الجميع قائلا :

— ما أحوجتنا إلى تحكيم نزيه ، فهذا رجل يتوهم أنه قاض وهو في الحقيقة

قاتل ، وذلك رجل آخر يزعم أنه صاحب البيت وتؤكدون أنه لص منازل

حقير . وأنا أقول إنني صاحب البيت على حين يتهمني هؤلاء بأنني قاتل المرأة

الطيبة . فما أخرج من هذه الفوضى ؟ ، لا مفر من أن نستدعى الشرطة !

فقال العملاق باستهانة :

— سيقتد بنا اقراحك إلى قعر بئر عميق .

— بل ليس أسهل من استدعاء الشرطة .

ولكن المشاكل تبدأ بمجرد فتحها . ستحرر لنا محضرا طويلا عريضا لا بداية له

ولا نهاية . ثم تأمر بتحويلنا إلى النيابة ، ويستمر التحقيق أياما وأسابيع ، من

القاتل .. من اللص .. من صاحب الشقة ، ثم تأمر بتحويلنا إلى المحكمة ،

ويتقادفنا الاتهام والدفاع حتى ننطق ، ونؤجل من جلسة إلى أخرى ، ولن ينطق

بالحكم حتى يكون أول إنسان قد هبط فوق سطح القمر ، وفي أثناء ذلك تغلق

الشقة وتختتم بالشمع الأحمر فتصير نهبا للحشرات والأشباح ، لا تنس هذه

السلسلة المعقدة التي لا نهاية لها .

— ولكنها حاسمة وعادلة !

— أيسر من ذلك أن تنقض على خصمك فتحطم جدران بطنه بلكمة صادقة

فيعترف لك بحقك ، ثم تتصافحان ويذهب كلاكما إلى حال سبيله .

وتقدمت الراقصة خطوة وقالت :

— فيم تتناقشون والعقد محلوله بنفسها لا تحتاج إلى حلال ؟.

فقال العملاق ساخرا :

— لنستمع إلى الغازية !

ولكنها قالت بهدوء دون تأثر أو غضب :

— لا حاجة بنا إلى البحث عن القاتل فقد حوكم وقضى عليه بالإعدام !.

فقال الزمار بحماس :

— وبإعدامه يبطل ادعاؤه ملكية الشقة .

وعادت الراقصة تواصل حديثها قائلة :

— وتصبح الشقة ملكا لنا جميعا على قدم المساواة !

فابتسم العملاق لأول مرة ولكنه قال بعجرفة :

— لا أقبل المساواة !

فقال الرجل الغليظ بعجرفة مماثلة :

— وأنا أرفضها !

فقال العملاق :

— ليكون نصيب كل بحسب قوته .

فقال الرجل الغليظ :

— ليكن نصيب كل بحسب قوته .

فقال الرجل الغليظ :

— ليكن ..

فقال الراقص : —

— الخير بين أيدينا أكثر من أن يحصى !

أحاطت الجوقة بالرجل الغليظ تحاول إقناعه . وتنهت الراقصة بالعملاق جانبا لتلطف من صلابته . أما الزوجة فقد رجعت خفية إلى موقف زوجها . وقفت لصقه وهي تدس شيئا في جيبه . وراحا يراقبان الحشد الذي يتأمر على قتلها ونهب بيتها بغرابة . غير أن طارئا سرى في الجو بخفة كالهمس ، رائحة ما ، وشيء كالزفير أو الهسيس . وتفشى في دقائق كالفتح مفرج رائحة مميزة كالدهان . وانتشرت طقطقة مجنونة بسرعة غير متوقعة فالتجمت على المتأمرين خلوتهم . جذبت منهم بعنف أعينا محملقة نحو ردهة المطبخ . وما لبث أن غابت في سحابات من دخان تسبح فيها عناقيد من الشرر ، وتلاطمت صرخاتهم في غضب :

— النار !

— حريق في المطبخ !

— الشقة في خطر .

— كل شيء في خطر .

— فلنطفئها بأي ثمن .

وذبت حركة وحشية . ولكنها لم تكن إلا صدى خفيفا لحركة زعديّة اطبقت على الطريق في الخارج . ارتفع الصياح . دق جرس الباب بلا انقطاع . نهال دق عتبت على الباب الخارجي . وهرع المتأمرين إلى ردهة المطبخ ، غير أن العملاق مال نحو الشاب فجأة وهو يصيح :

— لن نترك هذا !

انقض على الشاب . ولا الشاب يقاومه بغيره من سكين أسلحتها من حبه فاستقرت في القلب ، ودهوى على أثرها العملاق دون أن يبس . لم تعب الواقعة عن الرجل الغليظ فوثب على الشاب وهو يصيح :

— خيانة !

وفي الحال صرعه وبرك فوقه ، ولكن الزوجة استلت بدورها سكينه مدسوسة في جيب معطفها وبكل قوتها غرستها في عنق الرجل . وتتابعت الأحداث في سرعة البرق . تحطم الباب الخارجي . اندفع منه رجال متهورون . ورن جرس المطافيء . وصفارة النجدة . وارتطمت في الشقة الجديدة قوى المقاومة بقوى الغدر فانخرطت في معركة شاملة تحت السنة اللهب المندفع والماء المتدفق وقطع الأثاث المتناثرة .

وفي المساء نشر الهدوء ألويته فوق الحى جميعه . خلعت الشقة من الغرباء ولم يبق بها قائم ، إن هي الا أشلاء مقاعد وحطام أجهزة ونفايات مفارش . جلس الزوجان على أريكة تحت نجفة صغيرة لم ينبج من مصابيحها إلا شمعة واحدة شعت ضوءا شاحبا . لم يخل وجهاهما ورأساهما من كدمات وتسلخات وأورام خفيفة أما ملابسهما فقد تمزقت في أكثر من موضع وتلوثت بالسناج . جعلتا ينظران فيما حولهما بوجوم ويتبادلان النظر . وفجأة أغرقا في ضحك هستيرى ركبهما طويلا حتى رجعا إلى الصمت والوجوم . ورغم كل شيء فإن القلب لم يخل من ارتياح خفى ، وامتنان . وتردد صوته في إعياء :

— ضاع كل شيء .

فربت على كتفه بخنان وقالت :

— نجونا بأعجوبة !

فهز رأسه في تسليم وتمتم :

— أجل نجونا بأعجوبة .

ثم بنبرة وشت ينشوة طارئة :

— لم يضع شيء لا يمكن تعويضه .

العالم الآخر

رقصت الفتاة على عزف جوقة صغيرة في القهوة الوحيدة بالدرب . جميع المقاعد خالية في تلك الساعة من الأصيل عدا مقعدين أمام القهوة احتلت المعلمة أحدهما وجلس على الآخر تابع شاب لها . تبدى بلاط الدرب الضيق نظيفا لم تطأه قدم بعد أما الشمس فتوارت وراء البيوت القديمة طارحة آخر دفقة من شعاعها على أسوار الأسطح المتآكلة . وعلى جانبي الدرب — أمام الأبواب المفتوحة — جلست نساء على كراسي خيزران في أزياء متهكة وزينة فاقعة ، يدخن ، ويتبادلن الأحاديث . قالت المعلمة لتابعها الشاب :

— حياتنا خنوع واستسلام ودفع إتاوات ، حتى متى ؟

فقال التابع ، وهو متين البنيان في العشرين من عمره :

— حتى تنهيا الفرصة للقضاء عليه !

— متى تنهيا الفرصة ؟

— كل شيء بأوانه ، وإلا دمرنا تدميرا لا يقى ولا يذر .

— مهنة كالقطران ، ادفع ادفع ادفع ، للطبيب .. للشرطي .. للضابط .. وكنه كرم وشيخ البلطجية كرم وحده ، هل قضى علينا أن نشقى بمهنة جزاؤها النار وبئس القرار لنبدد مكاسبنا على كل من هب ودب !

— لكل عمل متاعبه .

— ما أكثر الذين يفوزون باللقمة الهنية بلا قرف ..

— الصبر طيب يا معلمة ..

نبصقت المعلمة بازدراء وقالت :

— الليلة موسم ، وعلينا أن نحقق أكبر ربح بالإضافة إلى نفقات الحكومة والبلطجية !

— ستكون ليلة مباركة ..

— هنتك ، فتح عينك ، خذ بالك من النسوان ..

— اطمئني يا معلمة ، ولكن الرجل المرغب سيمر آخر الليل ليأخذ الإتاوة ..

ثم وهو يشير ناحية الفتاة التي ترقص داخل القهوة :

— وليجر وراءه أجمل بنت عندنا !

فتنهدت المعلمة قائلة :

— حسبي الله ، ولكن أمامها ليل طويل قبل ذلك تستطيع أن تحول ساعاته إلى ذهب !

وقام التابع فدخل القهوة . أشار إلى الجوقة فكفت عن العزف . أخذ الراقصة من ذراعها وانتحى بها جانبا بعيدا عن الأنظار . وفي تلك اللحظة ظهر في مدخل الدرب شاب يافع يدل مظهره على أنه تلميذ أو طالب . ألقى على الدرب نظرة استغراب ، ونقل عينيه بين النسوة في دهشة واضحة . تردد مليا ، استعدت كل امرأة لاستقباله بحركة ترحيب ، لكنه ألقى ببصره فيما أمامه بلا فهم أو مبالاة وتقدم نحو القهوة . حيا المعلمة برفع يده إلى جبينه ثم سألها بأدب :

— أين صاحب القهوة ؟

سأله بدورها وهي تتفحصه بإمعان :

— ماذا تريد منه ؟

— أريده لأمر هام .

فأشارت إلى نفسها وهي تقول :

— محسوبتك صاحبة القهوة .

تسائل بدهشة :

— حضرتك ؟

— حضرتي !!

وضحكت ضحكة عالية ثم قالت :

- بشرى لنا ، السماء تمطر أدبا !
 — لا مؤاخذه ، أرجو ألا أكون أخطأت .
 — لا سمح الله ولكن خيل إلى بادى الأمر أنك زبون نهارى !
 — زبون نهارى ؟
 — ما علينا ماذا تريد من صاحبة القهوة ؟
 فقال الشاب بجدية :
 — يجب أن أقدم نفسى أولا ، أنا مندوب لجنة الطلبة .
 — لجنة الطلبة ؟
 — اللجنة العامة للطلبة ..
 فتساءلت مازحة :
 — ولم لم تجئ معك باللجنة لتقضى شهرة الموسم عندنا ؟
 فقال بجدية مضاعفة :
 — نحن مندوبى اللجنة انتشرنا فى أنحاء القطر للدعوة إلى قرار خطير !
 — قرار خطير ؟
 — تعلمين حضرتك أن غدا هو الذكرى الأسيفة لمروء عام على إلغاء دستور الأمة ؟
 فقالت وهى ما زالت تفحصه بذهول :
 — حضرتكى لم تعلم .
 — دستور الأمة !
 — دستور يا سيادى .
 — الموضوع لا يحتمل المزاح .
 — أليس المزاح أفضل من الجد ؟
 — التوقيت خطير والصحابيا يساقطون كل يوم بالعشرات !
 — لا حول ولا قوة إلا بالله

- والوطن يطالبنا ..
 فقاطعته :
 — ما الذى جاء بك إلى هذا الدرب ؟
 — وقع شارع كلوت بك فى قرعتى ، مررت على المجال والدكاكين والمقاهى
 فوجدت استجابة شاملة ، سيغلقون الأبواب جميعا بلا استثناء غدا ، وأنا عائد
 من مهمتى تنبهت إلى هذه العطفة التى لم ألاحظها فى مروءى الأول ..
 — ألم تدخلها من قبل ؟
 — كلا يا سيدتى ..
 — لم لم توجه دعوتك إلى الفتيات الجالسات أمام الأبواب ؟
 — على فكرة ، لم يجلسن بهذه الصورة المثالية لتقاليدينا ؟
 — اجلس ، اجلس واشرب شيئا ، أشهد الله أنك أظرف شاب قابلته فى
 حياتى !
 — لا وقت عندي ، أشكرك وأعتذر ، على أن أمر على بقية المجال فى الدرب .
 — لا يوجد فيها إلا قهوى .
 — حقا ؟ إذن فقد انتهت مهمتى ، ولكنك لم تعطينى بشيء !
 — أى وعد ؟
 — بخصوص الإضراب العام المزمع تنفيذه غدا ؟
 — ماذا تريد ؟
 — أن تغلقى القهوة غدا .
 — سبحان الله ، لم ؟
 — احتجاجا على إلغاء الدستور .
 فضحكت المعلمة وقالت :
 — عشنا وشقنا !
 — الجميع استجاب لنداء الوطنية .

— عشنا وشفنا !

— لم يعترض أحد ، حتى الخواجات !

فغمزت له بعينها وسألته متهمكة :

— آنت وحيد مامتك ؟

فقال وهو يدارى استياءه :

— لا وقت للمزاح ، ولا للخروج على الإجماع .

فهتفت المعلمة بخدة لأول مرة :

— يادافع البلاء يارب ، لا يكتفينار رجال الحكومة والبلطجية حتى ينضم إليهم
مدرسة الطلبة والندستور !

— أرعيم نفسه سيظوف بأخاء القاهرة ليتفقد حال الإضراب بنفسه !

— أرعيم سيشرقنا هنا ؟

— بشخصه !

— أهلا به وسهلا ، سنفتح له الأبواب بالجمان !

— موقفك غير مفهوم يا هانم !

— هانم !

وأغرقت في الضحك .

— موقفك غير مفهوم !

— أسمع برأس أمي أن الإنجليز سيخرجون من مصر قبل أن تفهم أنت أى
شئ .

فقال الشاب غيرة لم تخل من تهديد :

— أتحشى أن يعرض الخارجون عن الإجماع لغضب الشعب !

— نحن نخدم الشعب من قبل أن تولد لجنة الطلبة .

— حتى النساء سيشركن في مظاهرات الغد .

أحالت المعلمة عيناها عن النساء الفاحشات أمام البورت وصاحت بين

— اهتفن معي .. يحيا الإضراب ..

وهتف أكثر من صوت :

— يحيا الإضراب ..

ثم ضج الدرب بالضحك . وإذا بالتابع يرجع على صوت المتناف . ولما رأى

الشاب ارتسمت الدهشة في أساريره . وتنبه الشاب إليه فبادله دهشة بدهشة .

هرول كل منهما نحو صاحبه وتعانقا بحرارة . وقال الشاب :

— لا أصدق عيني ..

فقال التابع :

— ماذا جاء بك إلى هنا ؟

وعند ذاك سألته المعلمة :

— تعرفه ؟

— جار العمر ، وزميل من أيام المدرسة ..

فقالت ساخرة :

— بسلامته يطالبنا بالإضراب غدا احتجاجا على إلغاء الدستور !

فضحك التابع ضحكة عالية وقال :

— والله زمان !.. فكرتنا بالذى مضى !

وجذبه من ذراعه فجلس وأجلسه على كرسي جنبه . وهنا قامت المعلمة وهي

تقول للتابع :

— أنا ذاهبة ، فتح عينك ..

مضت خارج الدرب وقد وقفت النساء لها على الجانبين . التفت التابع نحو

الشاب قائلا :

— متى رأيتك لآخر مرة ؟

— منذ عامين ، بل أكثر ، أين اختفيت كأنك هاجرت إلى الخارج ؟

— وأنت .. ألا زلت غارقا في السياسة ؟.. ولكن كيف تريد لهذا الدرب أن

- إنه أعجب مكان رأيته في حياتي ..
 — أما زلت تذاكر وتنجح وتشارك في المظاهرات ؟
 — وأنت ! .. أين أنت ؟ .. كم أوحشتني !
 — يخيل لي أنك نسيته !
 — أبدا ، حتى والدك نفسه وانتهى الجرأة مرة على أن أسأله عن مكانك .. فضحك التابع وتساءل :
 — وكيف أجابك ؟
 — نهري ، وحذرتني من العودة إلى ذكر اسمك على مسمعه !
 — وكيف حال أسرتي ؟
 — بخير ، ولكن لم انقطع عن زيارتهم ؟
 — أليس لديك فكرة عن حيننا هذا ؟
 — ولا عن أى شيء سوى الكتب والذئب !
 — باختفائك فقدنا أبهى صديق !
 — لعلك الوحيد من العالم الآخر الذى كنت أحن إلى رؤيته ..
 فنظر الشاب فيما حوله وقال :
 — أوضع ما غمض على أمره في هذا الدرب ..
 — لكن شيء وقت ، لا تتعجل !
 — أتقيم هنا ؟
 — نعم ..
 — أتعلم هنا ؟
 — نعم ..
 — وهؤلاء النسوة ؟
 — لطيفات وطلوع الأمر ..
 — مظهر من قاع مبتدل ..

- بدأت تفهم ..
 — حقا !
 — وتطالبين بالإضراب ؟
 — وضحك عاليا . وهم الشاب بالكلام ولكن الموسيقى عزفت بالقهوة فعادت الفتاة إلى الرقص . وانجذبت عيناه إليها بقوة فتابع رقصها باهتمام وإعجاب . ثم شعر بعيني التابع تتجسسان عليه فابتسم مرتبكا بعض الشيء وتمتم :
 — فتاة جميلة !
 — حقا ؟
 — من الطراز الذى يستهويني !
 — ترى ما نوع هذا الطراز ؟
 — يصعب تعريفه ، ولكنها ترقص في قهوة خالية !
 — مجرد تمرين فالسهرة لم تبدأ بعد .
 — وتوقف العزف والرقص . وسرعان ما جاءت الراقصة وجلست إلى جانب التابع . وحمل إليها صبي فنجال قهوة فراحت تحتسيه بتمهل وتلذذ لا مبرر له . حانت منها التفاتة إلى الشاب الجديد فضبطت عينيه الصافيتين وهما ترنوان إليها بإعجاب لا خفاء فيه . وفي الحال وهبت عينها بسخاء أذله وأتمله فقال التابع وهو يتابع الحكاية باهتمام موجهها خطابا للراقصة :
 — صديقي معجب بك !
 — فقالت ببسالة :
 — أرجو إبلاغه إعجابي أيضا !
 — فتساءل التابع ضاحكا :
 — من أول نظرة ؟
 — نظرة كفاية وفوق الكفاية !
 — فقال الشاب في تلثم :

— لا شك أني سعيد الحظ :—

فقلت الفتاة باسمه :

— ما أجمل أن أرى وجهها يحمر خجلا !

فقال التابع للشاب بتحريض :

— أثبت رجولتك !

فقمغم الشاب بأصوات مبهمة حتى قالت الراقصة مازحة :

— تانا .. تانا .. خط العتبة !

فنهزها التابع قائلا :

— شجعيه ولا ترعييه !

فأعطته الفئجال بعد أن فرغت منه وهي تقول :

— شفي لي بختي ...

فقلب الفئجال فوق الطبق ثم مضى يقرأ ما بداخله ، قال :

— أمامك ليلة موسم طويلة غنية الموارد ..

— وماذا أيضا يا سيدنا الشيخ ؟

— في نهايتها يطرق بابك شيطان ليخطف روحك :

— ألا ترى في طريقه رجلا جديرا برجولته ؟

فاكتنهر وجد التابع وأعاد الفئجال إلى الطبق ، ولكنها ربت على ذراعه ملاطفة ثم سأله ببرة جادة :

— ماذا أعددت له ؟

— أعدت العشاء لخير له الأوبة ..

— متى يحضر ؟

— قد يمر في أي ساعة لكننا لا ندرى متى ينزل بقهوتنا !

فقلت بخنق :

— سيأخذني معه ولا يندري أحد متى أعود !



— لا تحدثيني عن ذلك ..

فسألت الراقصة الشاب راجعة إلى الدعابة :

— وأنت .. ألن تدافع عن حبيبك ؟

فتساءل الشاب :

— عم تحدثين ؟

ولكن التابع بادره قائلا :

— إن كنت تحبها حقاً فهي لك !

— لي ؟!

— النظرة والحب والتنفيذ تحدث في دربنا في ساعة واحدة !

— أفندم ؟

وقبل أن يجيبه تراءت المعلمة في أول الدرب . سارت بعجلة إلى داخل القهوة وهي توميء إلى الراقصة فتبعها في الحال . تبادل الصديقان نظرة طويلة ثم قال التابع :

— الظاهر أنك وقعت !

— ليس الأمر كما تتصور ! إنها فتاة جذابة وفي عينيها نظرة بريئة !

— بريئة !

— بكل معنى الكلمة .

— ألك ثقة في فراستك ؟

— قلبي لا يخفى .

— هنيئاً لك موهبتك ولكن ألا ترغب في شيء من الترفيه قبل أن تفوض جهاد الغد ؟

— يبدو أنك لم تعد تهتم بالسياسة !

— خلنا فيما نحن فيه ، ألا ترغب في شيء من الترفيه ؟

— ألم يعد تهزك حدث إلغاء الدستور ؟

— انظر إلى دربنا العجيب ، تأمله لتذكره فيما بعد ، فيه تسعد النفس بجميع بحرمايت العالم الآخر ، مثل الحب . والحرية والاحترام !
ومال فوق أذنه وراح يهمس له وكأنما ينفث في أساريه الدهول . وهتف الشاب :

— فوق العقل ! .. ولكن ماذا تفعل هنا ؟

— أقيم هنا كما قلت لك .

— ولكن ..

— ألا ترى في عيني نظرة بريئة ؟

ضحك الشاب وقال :

— إنه مكان عبور لا مكان إقامة !

— لكل قاعدة استثناء كما قيل لنا في المدرسة !

— من يتصور أنك ابن أهلك الرجل الطيب !

فبصق بازدرء وقال :

— اللعنة على الجميع !

وحل صمت فاتخذا منه هدنة للتفكير ثم قال التابع بنبرة خلعت من المزاح أو السخرية لأول مرة :

— إني أكره العالم الذي جئت منه ، هجرته بلا أسف عليه ، وإذا ذكرته فإنما

أذكر عنف أذى وغباءه ، وسجن المدرسة الرهيب ، وهراوات الشرطة ، وما إن

اقتديت إلى هذا المكان حتى أدركت أنني ولجت أبواب الجنة !

— الجنة ! .. أي جنة ؟!

— هنا يتقرر مصيرك بقوة رأسك ، ويتحدد مركزك المالي بحزمتك ، وتقرر

سعادتك بطاقة حيوبتك ، لا زيف على الإطلاق ، اعتبرني الآن رئيس وزراء

يعترض طريقه رجل خطير فإذا تغلبت عليه يوماً ما توجت ملكاً !

فضحك الشاب قائلاً :

— عاش الملك !
— ما الأمل الذى تشقى من أجله ؟ ، وظيفة حقيرة فى حكومة حقيرة ! ، ثم إنك عبد مضطهد ، الاضطهاد يطبق عليك فى بيتك ، ويطاردك فى الخارج ، وكل عام أو عامين يتصدي لك دكتاتور كالكلب الأرمنت يلتهم لحمك ويهشم عظامك ..

— أترى أن الحل أن أحمل متاعى وأقدم إلى هنا ؟
— فقال التابع معاودا سخريته :
— ذاك مطعم فوق قدرتك !

— ولكن ..
— ولكن ؟
— ولكن رب زيارة من آن لآخر تنفع ولا تضر !
— فى هذا ما يكفى فى الوقت الحاضر !
وغادرت المعلمة القهوة . هرع التابع إليها فقالت له :
— إنى ذاهبة مرة أخرى ، سأوفق بإذن الله ، انتبه ، وإذا مر قبل أن أرجع فتصرف بحكمة ، إياك والتهور وإلا هدمت الدرب فوق رؤوسنا !
ذهبت المعلمة . عادت الراقصة إلى مجلسها . ومضت فترة قبل أن يسترجعوا جواهرهم السابق . وتساءلت الفتاة :

— هل قرأت البخت لصديقك ؟

— نعم ، فى طريقه بنت حلوة ورخيصة .

— هل تشبهى هذه البنت ؟

— لا أدرى ، لم يبد فى الفتنجال إلا جسمها العارى وحده !

ومالت الراقصة بغتة نحو الشاب فقيلت خده . ضحك التابع وقال :

— قم .. لا تؤجل عمل اليوم إلى غدا ، فإن يوم الدستور غدا !

ونفض التابع ومضى إلى داخل القهوة وهو يقول :

— سأمر لكما بكأس كونياك على حسابك !
جعل الشاب يبادلها النظرات . رأى حلية فى عنقها فمد يده إليها وقربها من وجهه . ابتسم متسائلا :

— صورة من ؟
قطبت الفتاة مأخوذة ولكنه قال دون أن يلاحظ شيئا :

— طفل جميل ، من هو ؟

تبدى التأثر فى وجه الفتاة حتى اغرورقت عيناها على رغبها .

— رباب .. مالك ؟

أشاحت عنه بوجهها وهى توشك أن تنهار تحت موجة بكاء عاتية .

— آسف .. آسف لا تؤاخذينى !

وعاد التابع بالكأسين فوضعهما على الخوان متمتا « عشرة قروش فقط ما أجمل عيوتك » ثم تنبه إلى الفتاة فتساءل :

— تبكين ؟

شرح الشاب له ما غمض عليه بإشارة من يده إلى الحلية فاكفهر وجه التابع وهوى بكفه على خدها بوحشية غير متوقعة غير مبال بما تولى الشاب من دعر وذهول . وهتف بها :

— تقيمين مأتما للزبائن فى ليلة الموسم ! .. اشربى !

تناولت الفتاة الكأس فتجرعته دفعة واحدة وقدمت الآخر إلى الشاب ولكنه

تراجع قائلا بعصبية وحدة :

— كلا !

فقال له التابع :

— خذه معك إلى الحجرة !

— الحجرة ؟

— ستذهبان معا إلى ذلك البيت القريب .

- كلا !
 — لا تتأثر كالأطفال ، انس ما رأيت بسرعة ، اذهب ، لن تندم أبداً ، البتة
 مدهشة ، والبكاء ما هو إلا حيلة نسائية مشهورة ..
 وهرولت الفتاة إلى البيت وهي تقول بإغراء :
 — اتبعنى ، تانا .. تانا .. خط العتبة !
 وقال له التابع :
 — قم قبل أن يحىء الليل وتتقاطر أفواج الزبائن :
 فقال بإصرار :
 — كلا .
 — كف ! .. أنسيت الطراز الذى يستهويك ؟
 — لا رغبة على الإطلاق ..
 — لا تعتد الأمور .
 — دعنى من فضلك .
 — لقد سجل فى حسابها أول زبون فلا تتسبب لها فى ضرر .
 — سأدفع ما تطلبه ولكنى لن أذهب .
 — عشرة قروش ، هذا حسن ، ولكنك لن تستطيع مواجهة الحياة بقلب
 كاللبن !
 — ولكن .. أنت .. كيف هان عليك أن تطلطمها بتلك القسوة ؟ .. أنت
 ولى أمرها ؟
 — إلى ولى أمرها .. وأعمل لصالحها ولصالح الكل .
 — أتعلم بكلامها على وجهها ؟
 — لا وقت هنا للبكاء .. إلى الأمين على الصالح العام !
 فضحك الشاب على رغبته وقال :
 — إنك تذكرنى بفعل وكلمات الطاغية ! ، لشد ما تغيرت !

- كف عن التفلسف والحق بها ..
 — لشد ما تغيرت ..
 — لا تقس فى الحكم على ، إن أى ضعف يعترينا هنا إنما يعنى هلاكنا !
 — وماذا يضطرك إلى الإقامة هنا ؟
 — مهما يكن من أمره فهو أفضل من العالم الآخر ..
 — ما هو إلا مزاح !
 — حقاً ! .. أنسيت ؟ .. أليس الطاغية يحكمكم ؟ ، والشرطة تجلدكم ؟ ،
 والجيش يحصدكم ؟ ، والإنجليز يترصون فوق ربوسكم ؟ ، لا أحد يحكمنى هنا ،
 وأنا لا أستعمل القوة إلا دفاعاً عن الصالح العام ..
 فقال الشاب وهو يلوح بيده فى أنى :
 — وجئت بعبائى لأطالبيكم بالإضراب غدا !
 — دستورنا هنا لم يبلغ ولا يمكن أن يبلغ ، إنه دستور أبدي ، وهو يقضى بأن
 نعمل لا أن نضرب ، أن نعمل لا أن نبكى موتانا ، ووراء هذه الجدران المتداعية
 نقدم لأمثالك السعادة التى يحملون بها .
 فقال الشاب كالحالم :
 — وأسفاه .. لم أعجز عن تحقيق ما أريد ؟
 — ماذا تريد ؟
 — ولما لم ينس عاد يسأله :
 — ماذا تريد ؟
 — فأجاب بصوت حالم أيضاً :
 — أشياء كثيرة ، ما يهمنى منها الآن أن أرجع تلك الفتاة إلى العالم الآخر !
 فضحك التابع وقال :
 — لقد كانت هنالك ولم تجد مناصاً من هجره والحىء إلى هنا ..
 — من الممكن أن تتوفر لها حياة مستقرة هنالك ..

— صدقنى لقد لاذت بنا كما يلوذ الغريق بصخرة !

وفجأة ظهر قزم وهو يصفر ثم صاح : « إبليس » . وفي الحال انفجرت في الدرب حركة شاملة . هرعن النساء إلى داخل البيوت وأغلقت الأبواب . قبض التابع على ذراع الشاب واندفع به إلى داخل القهوة وأغلق بابها . في ثوان خلا الدرب تماما وشمله الموت . ومرت دقيقتان ثم ظهر الفتوة وسط عصابة مدججة بالنبات . ألقوا على المكان الخالي نظرة استعلاء وساروا على مهل في خيلاء . ساروا يرجون الأرض بوقع أقدامهم الثقيلة وارتطام نباتهم بالبلاط . مضى الزحف وثيدا حتى اختفوا وراء المنعطف ومرت دقائق والدرب مستسلم للموت . حتى ظهر القزم مرة أخرى وصاح « أمان » . ورويدا رويدا أخذت الأبواب تفتح والحركة تدب واللغة يعلو ، كما عاد التابع والشاب إلى مجلسهما حول الخوان . وقال التابع بهدوء :

— مناورة ، ما هي إلا مناورة ، وعندما سيعود سيجد الإنارة جاهزة ! وانتابت الشاب نوبة ضحك هستيرية :

— ماذا يضحك !

— فكرت أن لو حصل الإضراب غدا بهذه الصورة فسيكون أكبر مظاهرة وطنية ..

— إنه يناور ونحن نناور !

— إنه الخوف يا صدقنى ..

— لا تحكم بالظاهر .

— لستم أفضل حالا منا !

— فليس مع الفارق ، ثم من أشر ما فعلته ذلك يوم !

— وتصبح عند ذلك الطاغية !

— لقد نالها عن جدارة ، ما نالها عن جدارة أما في العالم الآخر فالعلاغة يطفى

استنادا إلى قوة أسياده .

— أنت راض عن نفسك حقا ؟

— ثمة أمل دائما لا يغيب !

— يا للخسارة ، لقد كنت تلميذا ذكيا ولكنك كنت عدو الاجتهاد !

— الحمد لله ، فلو كنت مجتهدا لمضيت في طريقك حتى أدفن في إدارة من إدارات الحكومة !

وهنا عادت الزاقصة إلى مجلسها وهي تقول مخاطبة الشاب :

— خبيت ظنى !

فقال لها التابع بخشونة :

— الفضل لدموعك الحارة :

فقال الشاب برجاء :

— لا تعد إلى ذلك .

فقال لها التابع :

— استعدى للرقص ..

فقالت بإشفاق :

— إني متعبة !

فضحك ضحكة عالية وقال :

— متعبة في ليلة الموسم !

— إلى بكأس كونياك ..

— اطلبيه من عاشقك !

وأدرك الشاب المقصود فقال :

— مات لها كأسا !

ذهب التابع . نظر الشاب إليها باهتمام ورثاء وقال :

— ثمة شيء في عينيك ، أنت متعبة حقا ..

— أعراض عابرة سرعان ما تزول .

— يحيل إلى أن هذا الدرب ليس بالمكان المناسب لك !

فقلت بسخرية :

— ربما ، لعل المكان الأنسب هو السجن أو القبر .

— أعوذ بالله !

— أليس الأفضل أن نذهب إلى الداخل لنغير المكان والحديث ؟

فردد الشاب قليلا ثم قال :

— في وقت آخر .. ولكن .. أنت متعبة حقا .

— حقا !؟

ووقفت فجأة كأنما تتزعزع نفسها من كابوس .. وخبث نظرة عينيها . وأخذت تتنفس بعمق ويجهد كأنما تحشر الهواء في قناة مسدودة . وقف مترعجا وأقرب منها خطوة ولكنها أشارت إليه أن يتعد . خاضت معركة مجهولة وحدها بلا نصير وبلا استجداء . ثم انقضت السحابة السوداء فاستردت العين نظرتها المألوفة . تهتدت . ابتسمت في استسلام . ثم انحطت فوق مقعدها . غمغمت :

— لا شيء .

— ولكنك .

— انتهى .

— أنت بخير ؟

— نعم ، اجلس ..

جلس وهو لا يحول عنها عينيه .

— أعتقد أنه يلزمك راحة طويلة .

— تلمني راحة أطول مما تتصور !

— وهل تستطيعين أن ترقصى ؟

— أستطيع ، لا أستطيع ، سيان !

وشحب لونها من جديد . وخبث نظرتها .

— أنت متعبة يا عزيزي !

— حقا ، وماذا بعد ؟ الطريق طويل .

— دعني الأمر لي .

— طريق طويل ، أطول مما تتصور .

— حالتك تزداد سوءا .

ورجع التابع يحمل كأسين في يديه ويدندن ، وقال وهو يلقي عليهما نظرة

باسمة :

— كعروسين في شهر العسل .

فقال له الشاب :

— إنها ليست على ما يرام .

فقطب متسائلا وهو يحدها بنظرة ارتياب :

— عادت للبكاء ؟

ولكنه قرأ في صفحة وجهها شيئا جديدا . قدم لها كأسا ولكنها أطاحت به ضجرة فوق على البلاط وتحطم مختلطا بسائله . وتأوهت بعمق طارحة رأسها على مسند الكرسي . وصادف ذلك قدوم المعلمة فنظرت إليها عابسة وتساءلت :

— ما لها ؟

فقال التابع وهو لا يحول عن الراقصة عينيه :

— أزمة كالعادة !

— هل تغاضت شيئا ؟

أغمضت الراقصة عينها متدهورة تماما فهتفت المعلمة بالتابع :

— أدر كنا بكوب ماء بالملح .. أسرع .

وقال الشاب للمعلمة :

— يجب استدعاء طبيب !

فصاحت المعلمة بحق :
 — اتبهنا من الدستور وسندخل في الطب ...
 ورجع التابع بالكوب . ولكن الراقصة تقلصت بحركة عنيفة ثم تهاوت
 ساقطة على الأرض .
 أسرع الشاب إليها ولكن التابع كان أسرع منه . عكف عليها يربت على
 وجهها ويدلك خديها وصدرها . قرب وجهه من فيها . جس نبضها . رفع
 وجهها جامدا ذاهلا ، منهزما لأول مرة وتمم :
 — ماتت !
 — ماتت !
 فندت عن المعلمة صيحة خافتة يائسة وقالت :
 — أنت أعمى ...
 فأعاد الكرة ثم قال يزود :
 — ماتت يا معلمة !
 — يا خير أسود !
 وهتف الشاب :
 — خطأ ، يجب استدعاء الإسعاف .
 فقال التابع بوحشية :
 — اصمت ، لقد ماتت .
 — في ليلة المرسوم ... يا الله من خط أسود من الليل .
 وقال الشاب بعناد :
 — إنها حية !
 فصاحت المعلمة في وجهه :
 — ألا تفهم يا طلعة الشؤم !

— ولكن كيف ؟
 — إنك تخاطبني كما لو كنت قابضة الأرواح .
 ثم التفتت إلى التابع وسألته :
 — هل تعاطت شيئا ؟
 — كلا ..
 — هو قلبها إذن ؟
 — أعتقد ذلك .
 — لو يكن بسبب تعاطى شيء فستقع في وسوج .
 — كلا ، ولكن ما العمل الآن ؟
 فقالت المعلمة :
 — فلنحملها إلى حجرتها أولا .
 وتعاون الثلاثة على حملها ومضوا بها إلى البيت .
 وتساءلت امرأة :
 — ما لها يا معلمة ؟
 فأجابت المرأة بلا تردد :
 — مستطولة !
 ودخل الموكب البيت بين ضحكات تتجاوب على الجانبين . وما لبث
 الأصيل أن ولى تماما ومضى الظلام يهبط ماحيا كل شيء . أشعلت الأنوار . بدأ
 الرواد يحضرون فرادى وجماعات . عزفت الجوقة ودبت في الأركان حياة
 صاخبة مرعدة . ورجعت المعلمة وتابعها والشاب فجلسوا حول الخوان المعدني
 في وجوم بادىء الأمر ، ولكن المعلمة سرعان ما قالت :
 — ابسطوا وجوهكم كما يجدر بأناس يستقبلون موسما .
 ثم بنبرة متشددة منذرة :
 — لا يجوز بحال أن يفتن أحد إلى سر الحجرة المغلقة ... ، وإذا سأل سائل عنها

فهي مشغولة بربون !

وتنهدت بحق وواصلت حديثها : —

— لو عرف أن الموت قابع بالبيت لما طرقه طارق حتى القيامة !

فقال الشاب غاضبا :

— ولكنه تصرف أبعد ما يكون عن الإنسانية ..

فقالت المعلمة مخاطبة التابع ودون مبالاة باحتجاج الشاب :

— تكفل بصديقك ، أنت مسئول عنه ، ولا جدوى من تصرف إنسانى

يقضى علينا بالخراب العاجل ، سيجىء دورنا يوما ما ولن تبكيننا عين ، سنشيع

باللغات حتى من زبائننا ، الليلة موسم ، فلتعض بالبهجة والخبور !

فقال التابع :

— لا تخشى من جانب صديقى .

فقال الشاب :

— ولكنه وضع لا يقبله عقل .

فقالت المعلمة :

— لم يحدث شيء غير طبعى ، وليس فى قدرتنا أن نرد الأرواح إلى

أجسادها .

— ولكن شتان بين القسوة والرحمة !

فقال التابع :

— ليس إلا أننا نؤجل إعلان وفاة !

— ولكن للموت احترامه !

فنهفت المعلمة بنفاد صبر :

— احترام الموت بعد الدستور والطلب !

فقال التابع معتبرا عن صديقه :

— لعله يلتقى بالموت لأول مرة فى حياته .

فقالت المعلمة للشاب :

— لا تطالبنا بالتفريط فى الحياة باسم احترام الموت ، ابقى لصق صديقك حتى

تنتهى السهرة ، واحتفل بالموت بعد ذلك ما شئت لك إنسانيتك !

فقال التابع :

— دعنى الأمر لى يا معلمة !

— ربنا يستر .

— جهزت الإناوة ؟

— نعم ..

— وإذا طالب بالراقصة ؟

— لن يطالب قبل نهاية السهرة ، وله إن شاء أن يقاتل عزرائيل عند ذاك ..

وقامت وهي تبسط وجهها فمضت إلى القهوة هاتفة :

— يا جمال الرقص يا جماله !

ورمق الشاب التابع بمرارة ثم قال :

— لشد ما تغيرت !

فقال التابع بوجوم :

— لا تبالغ يا عزيزى ..

— جنة ملقاة فى الداخل والعريضة دائرة فى الخارج !

— لا مفر ، للعمل ساعة وللموت ساعة .

— إنى حزين ، بزدى أن أفعل شيئا .

— حسن ، أعد إليها الحياة .

— يا لكم من وحوش !

— أتذكر كيف كان يلقي بضحايا المظاهرات فى القبور بملابسهم حتى لا

يشملهم الإحصاء الرسمى ؟!

— إلى الجحيم بكل شرير وبكل شر !

- ما زالت دنيانا أفضل .
فقال الشاب بضيق :
— عن إذنك ، أريد أن أذهب .
— كلا .
— كلا ؟
— المعلمة لا تسمح بذلك .
— لنذهب المعلمة إلى الشيطان !
— لقد وجدت نفسك في دربنا فلتتم التجربة !
— في غيثان منه .
— خذ الأمر ببساطة ولو من أجل خاطري !
وساد الصمت بينهما ولكن صخب العريضة انهال عليهما من الأركان
كالصواريخ . ورغم الزياط سمع صوت الشاب وهو يتعم :
— يا لها من شابة تعيسة !
فقال التابع ملاطفا :
— كانت مريضة بالقلب .
— لم تنعم بحياة هادئة تناسبها .
— ذلك أنه لم يكن من الجائز أن تموت جوعا .
فقال الشاب منفعلا :
— إنني أحقر برودك .
فقال ضاحكا :
— إنني أحقر حرارتك !
— دعني أذهب .
— غير ممكن ، إنها تخشى أن تبلغ عن الجنة .
— أيعنى ذلك أنني سجين ؟

- أنت ضيف صديقك القديم .
— يجب أن أستيقظ مبكرا ، أمامنا يوم جهاد عصب !
— يسرني أن أنقذك من الرصاص الذي يعد الآن لأمثالك .
— أنا لا أخشى الموت .
— ولكنك تحترمه أكثر مما ينبغي .
— رفع رأسه إلى نافذة الحجره الرهيبة وقال :
— جثة منسية ، بلا أهل ولا أصدقاء ولا رحماء .
— لم تعد بحاجة إلى أحد .
— وظهر القزم وهو يصيح « إيليس » . خرجت المعلمة فجلست بين الشاب
والتابع . سرعان ما سد موكب الفتوة مدخل الدرب . ولما وصل إلى القهوة
قامت المعلمة وتابعها لاستقباله . قالت بأدب لأول مرة :
— تحية لسيد الرجال .
— موسم طيب يا أذن الله .
— وضعت صرة في يده وهي تقول :
— بفضل الله ويفضلك ..
— وأين البنت ؟
— مع زبون !
— أرسلني في طلبها .
— ستكون بين يديك في نهاية الليلة .
— سأنتظر في القهوة ساعة واحدة ..
— ولكن ..
— ساعة بالتمام والكمال !
— أنت سيد من يفهم ويقدر .
— بالتمام والكمال وإلا فلها عزرائيل بوليمة فاخرة !

- ودخل القهوة متبوعا برجاله .
 نظرت المعلمة في حيرة إلى التابع وسألته :
 — ما العمل ؟
 — ما من قوة في الأرض تستطيع أن تأتي بها إليه كما يريد .
 — ماذا تتوقع ؟
 — انفضى إليه بالحقيقة ؟
 — هذا يعني خرابنا .
 — أخشى أن يعرف الحقيقة رغم إرادتنا .
 فقالت بغضب :
 — أفضل أن يدهنى القضاء على أن أسير إليه بقدمي !
 ثم قامت وهي تقول :
 — سأجلس معه وليعني الله على إقناعه !
 ومضت إلى داخل القهوة . مد الشاب جذعه يتابعها حتى استقرت إلى جانب الفتوة . ثم تراجع إلى جلسته وهو يسأل التابع :
 — ما معنى ذلك ؟
 — ليس عندي ما أضيفه إلى ما سمعت .
 — ماذا تتوقع أن يحدث في ختام الساعة ؟
 — سيفتحم البيت مغلما من يعترضه .
 — ولكنه لن يجد سوى جثة .
 — وعند ذاك يتقرر خراب البيت .
 — وما دورك أنت في ذلك كله ؟
 — لا أستطيع أن أدعه يمر دون مقاومة !
 — أفكر في اعتراض سبيله ؟
 — هذا هو عملي .

- عملك ؟
 — أنا حامي منطقة المعلمة !
 — ولكنه .. ولكنه سيقضى عليك .
 — ربما !
 — إنه مؤكد فلا تخاطر بحياتك .
 — هو عملي كما قلت لك .
 — تجاهله .
 — أفقد عملي وكرامتي .
 — يمكن أن تتسلل بطريقة ما إلى الشرطة !
 فقال ضاحكا :
 — أفقد كرامتي مرتين !
 — لا أفهمك .
 — هي تقاليد عملي .
 — إنه الجنون عينه .
 فابتسم التابع قائلا :
 — ممكن أن يقال مثل ذلك عن زعيمك .
 — أخشى أن تذهب ضحية الغرور ، دعني أتسلل أنا ..
 — أرفض اقتراحك .
 — أنت مهدد بفقد حياتك .
 — محتمل !
 وساد الصمت . نظر الشاب في ساعة يده فتزايد قلقه . هرب من مخاوفه إلى أمواج الرواد التي لا تنقطع . يعربدون ولا فكرة لأحدهم عما يتأزم في المنهى ولا عما يقبع في البيت . والتفت نحو صديقه قائلا :
 — الوقت يمر أسرع مما تصور .

- ليس أسرع مما أتصور .
- قد تكون آخر ساعة في حياتك .
- قول يصدق على أى مخلوق !
- لن تكون معركة عادلة .
- لا توجد معركة عادلة !
- يا له من انتظار !
- يا له من انتظار !
- ويا لها من نهاية !
- ويا لها من نهاية !
- يودى أن أسعد إلى حجرة الفتاة .
- م ؟
- لأجس نبضها من جديد !
- إني أتوئب لمواجهة القضاء وأنت تحلم بالخرافات .
- سمعنا عن جثت دبت فيها الحياة بعد دفنها ؟
- إذا قامت القيامة فابتعد عن ميدان المعركة .
- كنت أعتقد أن الغد هو يوم الخطر .
- حافظ على حياتك حتى الغد !
- يا له من يوم عجيب !
- أرجو أن تكون قد تعلمت أشياء مفيدة .
- كيف نظر الموت هذا الفتوة كذا ؟
- عندما ماتت الفتاة حل لي تشاؤم غريب .
- لم يبد عليك شيء قط .
- لا يجوز في عملي أن يبدو على الوجه شيء !

- يحيل إلى أنك تتكلم بحزن لأول مرة ؟
- صمت التابع ملياً ثم قال بثيرة اعتراف : .
- كانت حبيبي الوحيدة في هذه الدنيا .
- من ؟
- الميتة !
- ففر الشاب فاه من دهره فاستطرد الآخر : .
- عشرة ليست بالقصيرة ، وبها أصليت نجاحي في هذا الدرب .
- ظل الشاب يرمقه بذهول ، أما هو فقال : .
- والحق قد ماتت بموتها أشياء لا تعد ولا تحصى .
- ونهض وهو يهمس : .
- ما علينا ..
- وأشار إلى المعلمة إشارة خفية فجاءته بوجه كالح : سألتها : .
- هل لان جانبه ؟
- فقالت يئأس : .
- أصلب من الصخر .
- لم تبق إلا دقائق معدودات .
- والتفت نحو صديقه وقال : .
- ابتعد دون تردد .
- ومضى نحو القهوة في هدوء وثبات . وجعل يقرب من الفتوة باسمها حتى وقف بين يديه . وبغثة استل من صدره خنجرا ودفنه في قلب الوحش . انتر
- الفتوة قائما جاحظ العينين . ترنخ جسمه الضخم ودار حول نفسه ثم تهاوى كجدار تهدم . وفي الحال أفاق الوحوش من دهرهم . زلزلت القهوة بحركة جانبية . انتصبت أجسام ، استلت خناجر ، ارتفعت نيابيت ، تظايرت شتائم ، اهتزت جدران ، تحطمت مصابيح ، هرولت أقدام ، اختفى كل شيء

في ظلام حالك ، صرخت صفارة الشرطى . ومضى وقت غير قصير في الظلام .. ولما أشعلت المصابيح من جديد تبدى الدرب في منظر مختلف .. عند مدخل القهوة انطرحت ثلاث جثث للفتوة والتابع والراقصة ! .. خلا الدرب من جميع الرواد عدا نفر قليل دهمتهم المعركة فاندسوا تحت الأرائك ثم أخذوا يخرجون من مخابئهم بوجوه شاحبة ، على رأسهم الشاب . وطوق المكان قوة من الشرطة والمخبرين بقيادة ضابط مباحث . وانتحى جانبا المعلمة والنسوة بأبصار زائغة .

أما رجال العصاية فلم يظهر لهم أثر .

تحول الضابط إلى المعلمة وسألها : ..

— ما معلوماتك عن الواقعة ؟ ..

فاشارت إلى جثة الفتوة وقالت : ..

— جاء على رأس عصاية فهاجم الدرب بلا رحمة ..

— ماذا رأيت من المعركة ؟ ..

— إنى امرأة ضعيفة ، هربت فلم أر شيئا ! ..

أوما الضابط إلى جثة التابع وسألها : ..

— من هذا ؟ ..

— مدير المقهى ، قتل ولا شك وهو يدافع عن نفسه ..

— وهذه الفتاة ؟ ..

— كانت ترفص في المقهى عندما انطلقت المعركة ! ..

— لا يظهر بها أثر لا اعتداء ؟ ..

— كانت مريضة بالقلب فربما نقلها الخوف ..

عند ذاك خاطب الضابط الجميع قائلا :

— لا يرحن أحد مكانه حتى يدلى بأقواله .

وإذا تمخبر يتجه نحو الشاب فيقبض على ذراعه ويشده إلى موقف الضابط ثم

قال :

— إنى أتذكر هذا الشاب يا حضرة الضابط ..

قتساءل الضابط متكهما :

— أهو من رجال العصاية ؟ ..

— هو الذى اعتدى على حضرة المأمور فى مظاهرات العناير ثم نجح يومها فى

الهرب .

رماه الضابط بنظرة قاسية ثم قال :

— ما شاء الله ! .. تشعلون الفتنة فى البلد وتهربون إلى المواقير !

فخبران شامی

دق جرس المنبه . تقلب الرجل في فراشه . ثناء بصوت مرتفع كالتوجع .
أزاح الغطاء وجلس . ترحلح إلى الوراء حتى استند إلى ظهر السرير . ثناء مرة
أخرى . مديده إلى زر جرس معلق فوق الفراش فضغطه . جاءت امرأة حاملة
صينية عليها إبريق شاي وجريدة الصباح فوضعتها على ترائيزة لصق السرير . ملأ
القدح بنفسه وتناول الجريدة . لاحظ أن المرأة لم تبرح مكانها فحدجها بعين
متسائلة ، فقالت :

— الأولاد ..

ولكنه قاضعها بخدة :

— يا فتاح يا غليم ، صبرك حتى أغادر الفراش ..

وترددت المرأة فعاد يقول :

— هذا وقت الشاي والجريدة فلا تفسدى على أطيب أوقات اليوم .

تهددت المرأة وغادرت الحجرة وهو يتابعها بعينه حتى أغلقت الباب
وراءها . رشف من الفتجان رشفة ثم عكف على القراءة .

تحركت ستارة مسدلة فوق نافذة . خرج من ورائها رجل مرتديا بدلة
سوداء . تقدم بخطوات متمهلة حتى وقف في وسط الحجرة . نظر فيما حوله ثم
قال بلهجة خطائية :

— الحمد لله .

فتمتم رجل الفراش ورأسه لا يتحول عن الجريدة .

— الذي لا يحمد على مكروه سواه .

— لو قلت إن كل شيء حسن فرمما وقع القول من الأذان موقع الغرابة .

فتمتم رجل الفراش :

— ربما .

— وقد يتوهم البعض أننا لا نتحرك .

— قد .

تضايق ذو البدلة السوداء من تمتمات الآخر فمضى إلى الفراش وراح ينقر على
رأسه مخذرا ثم رجع إلى موقفه . انكمش رجل الفراش ولكنه لم يتحول عن
الجريدة وواصل قراءته الصامتة في هدوء . وقال ذو البدلة السوداء :

— نظرة عادلة إلى الوراء كفييلة بإبراز المدى الذي قطعناه .

فهز رجل الفراش رأسه دون أن ينبس .

— في كل شيء بغير استثناء .

فهز رجل الفراش رأسه مرة أخرى دون أن ينبس .

— ليعلم ذلك عدونا الخارجى ، وليعلمه عدونا الداخلى .

ونظر ذو البدلة السوداء صوب رجل الفراش مستطلعا فتمتم هذا دون أن
يتحول عن جريدته :

— كلام طيب .

عند ذاك أخلى ذو البدلة السوداء مكانه فاتخذ موقعا جديدا في ناحية الحجرة

المقابلة للفراش ووقف صامتا كتمثال .

تحركت الستارة مرة ثانية فبرزت من ورائها فتاة جميلة في لباس البحر .
تقدمت مزهوة بجمالها الفنان حتى وقفت في وسط الحجرة . وجعلت ترسم في
الهواء حركات سباحة كشفت بعمق أكثر عن مفاتها ، ثم قالت بصوت عذب :

— سأظهر هكذا في دور جديد تماما في الفيلم الجديد « الأبواب الخلفية » .

قال رجل الفراش :

« شهر الصالح »

— يسعدني أن أراك هكذا في أى دور !
— ولكنه دور عجيب يجمع بين المرح والمأساة .
— فقاطعها بحماس وهو لا يرفع رأسه عن الجريدة :
— المهم هو أنت !

— يفتلك بالضحك ويتقنك بالهدف !
— لا قيمة لشيء سوى قامتك السحرية :

— فهو فيلم ترفيهي وهادف معا .

— ماذا ؟ ، سمعى ثقيل ، هلا حدثنى في أذنى ؟

دنت الفتاة من الفراش ومالت نحوه فطوق وسطها بذراعه وجذبها نحوه حتى التصقت به .

— قلت إنه فيلم ترفيهي وهادف معا .

— ماذا ؟ ، قرى أكثر وأكثر .

فصاح ذو البدلة السوداء بصوت زاعد :

— فيلم ترفيهي وهادف معا ، أسمع !؟

سحب ذراعه بسرعة . واضل انكبايه على الجريدة : رجعت المثلة إلى وسط الحجرة . دارت حول نفسها في حركة استعراضية ثم مضت ناحية البدلة السوداء واتخذت موقفا .

وقال ذو البدلة السوداء :

— الفنانة تريد أن توظف ذوقك ولكنك تأبى إلا أن تراها بشهوتك .

— رأيت جسدا جميلا عاريا .

— أريد أن تقدم لك الحكمة في برميل ؟

— ما أكثر الأشياء التي تعذب الإنسان .

— سنعرض عليك أجسادا عارية .

— شكرا !

— والويل لك إذا عابثك شهوة من شهوات الجسد .

وجم الرجل فوق جريدته فسأله الآخر بحدة :

— ماذا قلت ؟

— الويل لى .

انزاحت الستارة بعنف . دوت في الجو طلقات رصاص وانفجار قتابل وأزيز طيارات . خرج من وراء الستارة جندي أمريكي وفيتنامي وهما يتبادلان إطلاق النار . تساقطت فوارغ الرصاص فوق الرجل في فراشه فاضطرب في مجلسه ولكنه لم يرفع رأسه عن الجريدة . رشف رشفة في عصبية واستمر في القراءة .
وضاح الجندي الأمريكي :

— أيها الشيوعى المنحط .

فصاح به الفيتنامي :

— أيها الإمبريالى المتوحش .

— ماذا جاء بك من الشمال ؟

— ماذا جاء بك أنت من وراء المحيط ؟

— الأرض كلها أمريكية .. وغدا سيكون القمر أمريكيا .

فقال الفيتنامي وهو يطلق النار :

— وستكون المقابر أمريكية ، سأقتلك ثم أقطف وردا

وأرقص .

وكرر تساقط فوارغ الرصاص فوق رجل الفراش فقال

متذمرا :

—



فصاح الأمريكي بالفيتنامي :
— انظر كم أنك مزعج للناس .
فصاح به الفيتنامي :
— إنه يوجه الخطاب لك أنت .
— ما كان ليجرؤ أن يخاطبني بتلك اللهجة .
— إني أطلق النار عليك أما أنت فتطلق النار في جميع الجهات .
وعاد رجل الفراش يقول متأوها :
— اللعنة على كل معتد أقيم !
فصاح الأمريكي في وجه الفيتنامي :
— أرايت أنه يقصدك أنت ؟
— يا جنون العظيمة !
وظلا يتبادلان إطلاق النار حتى فرغت ذخيرتهما فمضيا غير بعيدين من
المثلة ووقفا جامدين . وقال رجل الفراش وهو مكب على الجريدة :
— هذا الرجل جدير بكل إعجاب .
فقال ذو البدلة السوداء :
— بكل تأكيد .
وقالت المثلة :
— أرايت كيف أنه يتطفف الورد ويرقص في حومة القتال !
فقال رجل الفراش بصوت متخفف :
— سمعي ثقيل ، حلا اقتربت لأسمعك ؟
ولكن ذا البدلة السوداء ضرب الأرض بقدمه فسناد الضمت .

تحركت الستارة للمرة الرابعة فخرجت من ورائها امرأة متوسطة العمر

تعمل بين ذراعها ستة من المواليد فوقفت في وسط الحجرة وقالت :
— أنا امرأة من كوبا ، ولدت ستة توأم وجميعها في صحة جيدة !
فقال الممثل :
— هيات أن تصلحي بعد ذلك الحياة الأضواء .

— ولكني معجزة من معجزات الحياة !
فقال الجندی الأمريكي :

— نحن في عصر معجزات العلم والصناعة لا الحياة ، ومثل هذه المعجزة
المرعومة خليقة بأن تدفع العالم إلى أنياب مجاعة شاملة .

فقال الفيتنامي :

— لا خوف على العالم من مجاعة ما دامت قنابلكم تحصد .

— إنها لا تبيد إلا النفايات .

فقال الأم :

— هل أجد طعاما متوفرا ؟

فقال لها الفيتنامي :

— توجد ذخيرة بعدد حبات الرمال .

فقال الأم :

— لم أسمع قذيفة واحدة .

فقال رجل الفراش :

— طوبى لك في الدارين !

— شكرا يا سيدي .

— ولأيهم أكبر تحيات التقدير .

— أكرر الشكر يا سيدي .

— هل لديكم قانون تعاليم مناسب ؟

— عندنا أشياء كثيرة مناسبة .

— أهلا بك وسهلا .

وذهبت إلى الناحية الأخرى . جلست على الأرض وراحت تغني للمواليد .
تغني وتغني حتى ثقل رأس الفيتنامي بالنعاس فتأب ، وتبعه الأمريكي على
الأثر . وجلسا تباعا على الأرض عن يمين الأم ويسارها . وأوسعت لكل موضعا
في حجرها فتوسده برأسه وغط في النوم .

* * *

وتحركت الستارة حركة عصبية فخرج من وراءها رجلان ، اندفعا إلى وسط
الحجرة وكل منهما ممسك برأس الآخر يحاول جهده أن يخفضه إلى أسفل . صاح
أولهما :

— المارك فوق الجميع .

فصاح الآخر :

— الفرنك لا يعلى عليه .

— المارك رمز التفوق .

— الفرنك رمز الإنسانية !

ولكم الألماني الفرنسي فتراجع مترنحا حتى سقط فوق رجل الفراش . نهض
الفرنسي من سقطته فهجم على الألماني ولطمه على وجهه ثم قبض على رباط عنقه
وجذبه منه جذبة قوية فاندلق ناحية الفراش حتى ارتطم برجل الفراش . واستعاد
توازنه وانقض على خصمه . وجعل كل منهما يحاور الآخر حتى لا يمكنه من
نفسه . ونال منهما الإعياء فوقفا متباعدين وهما يلهثان . وقالت المثلة :

— أقترح أن تودعا نقودكما عندي حتى تسويا خلافاتكما !

فابتسم إليها ذو البدلة السوداء وقال :

— قول طيب ، أحسنت .

فخطت نحوها خطوتين وقالت يا غراء :

— لدى موضوع يصلح للإنتاج المشترك :

فقال الألماني :

— أوافق أن يكن عن حرب ١٨٧٠ .

وقال الفرنسي :

— حرب ١٩١٤ أهم وأخطر .

فقال الممثل :

— هو عن امرأة مريضة نفسيا ، وأعراض مرضها أن تسير عارية وهي نائمة !

فقال رجل الفراش وهو مكب على جريدته :

— مرض ممتاز .

وقال الفرنسي :

— أعطينا مثالا لتلك الحالة المرضية .

مدت يديها للجزء الأعلى من لباس البحر كأنما لتزرعه ولكن ذا البدلة السوداء

قال :

— ليس في وسط الحجرة !

فقال رجل الفراش :

— يهمني أيضا أن أرى ما يجري في بيتي :

فقال الآخر :

— الأجانب يستحقون معاملة خاصة !

— لقد علمت من قدامهم نفسى أن أشركهم بعض المسرة !

فقال له الممثل :

— لا من أهل المال أنت ولا من أهل الفن .

فتساءل منكرا :

— أفندم ؟ ، بمعنى ثقيل .

فقال ذو البدلة السوداء :

— ألاحظ أن أذنك تعمل بحسب هواك .

— إنى أمارس حررتى من خلال أذنى .

— سأسمعك بنفسى ما يتعذر عليك سماعة .

— شكرا ، لا داعى لتكليف خاطرك !

اندست الممثلة بين الرجلين فتأبطت ذراعيهما ومضت بهما إلى موضعها

السابق .

ومن وراء الستارة خرج رجلان ، يحمل أولهما كتابا ويحمل الآخر قوارير .

وقفا جنباً لجنب وسط الحجرة ثم قال حامل الكتب بصوت عريض رنان :

— من ذخائر التراث ، تفسير القرآن ، طبعة أنيقة مع تعليقات بأقلام أكبر

الأساتذة ، الثمن جنيه واحد .

وقال حامل القوارير بصوت منغوم :

— أفخر أنواع الويسكى ، وردت منها كميات محدودة ، بأسعار محددة

ومعقولة تتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة جنيهات .

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

— ألا تميزون أرباب الأسر بشيء من التخفيض ؟

— يختص بالتخفيض الطلبة فقط .

— وأرباب الأسر ؟

— الثمن معقول جدا ..

— شكرا .

وعاد حامل القوارير يقول :

— أفخر أنواع الويسكى ، كميات محدودة وأسعار زهيدة !

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

— أحرأ أن يتناول المسلم قليلا من الويسكى كدواء ؟

فأجاب حامل الكتب :

— إني أتناول كأسا قبل النوم كدواء لضيق الشرايين .

— ولكننى أشكو ثقلا فى السمع ؟

فقال حامل القوارير :

— ثقل السمع عرض مرضى لضيق الشرايين .

— ولكن ثمن الويسكى كفىل بسد الشرايين .

وتدخل ذو البذلة السوداء فى الحديث فخطب حامل القوارير قائلا :

— قف جنب السيد الفرنسى فهو يحب المرح .

وتحول إلى حامل الكتب قائلا :

— قف جنب السيد الألمانى فله أن يكون مستشرفا .

ثم التفت إلى المثلة وقال :

— همتك ، لديك قرآن وويسكى وموضوع مشترك !

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجلان من رجال الفضاء ، روسى

وأمرىكى ، سارا بخفة نحو وسط الحجرة ، تصافحا ، ثم قال الروسى لزميله

الأمرىكى :

— أصدق النهاى .

فقال الأمرىكى :

— ومسى إليك أصدق النهاى .

— لا بهم أننى سيقنك إلى التجربة ما دمت تتقدم بنجاح ، نهائى ..

— المهم هو النجاح ، وسألحق بك ، وسوف أسبقك ، نهائى ..

— لا أظن أنك ستسبقنى أبدا ، فات أوان ذلك ، نهائى .

— أراك لا تعمل حسابا للمفاجآت الأمريكية ، نهائى .

فقال رجل الفراش :

— إنكما حلم وردى فى عالم قطران !

— شكرا أيها الرفيق .

— شكرا أيها الزبون .

فقال رجل الفراش :

— بفضل العلم تقع معجزات .

فقال الروسى :

— وبفضل النظام الشيوعى .

فقال الأمرىكى :

— بل بفضل النظام الرأسمالى .

فقال رجل الفراش :

— لقد ارتفعتما إلى سماوات الله عز وجل !

فقال الروسى :

— رأيت الكواكب تسبح فى أفلاك متأثرة باختلاف أحجامها فمساراتها

متحددة بصراع طبقى أزلى سرمدى .

فقال الأمرىكى :

— وهناك الشمس تمد الكواكب بالحرارة والضوء كالعمونة الأمريكية .

— ألم تريا شيئا وراء ذلك ؟

فقال الروسى :

— لا شىء وراء ذلك .

ولكن الأمرىكى صاح :

— رأيت الله .

— كيف !.. أين ؟..
 — نور يحطف الأبصار ، يشع في منطقة من السماء تقع فوق البيت الأبيض .
 فقال له الروسي :
 — يا لك من دجال .
 — اخرس أيها السفاك .
 — سندفنكم أحياء .
 — سندفنكم أمواتا .
 فيتف رجل الفراش متأوها :
 — الغوث !.
 فصاح به ذو البدلة السوداء :
 — ها أنت تسمع كل كلمة تقال :
 — أسمع و شأ ، لعله ضيق الشرايين ، إلى بقليل من الويسكى ...
 — معك عملة صعبة ؟
 — ولا سهلة !
 — كف عن شرب الشاي فإنه مثير للأعصاب .
 — إنه يهينى أطيب ساعات اليوم !
 وهتفت الممثلة بتزفرة :
 — لا أستطيع أن أعمل في هذا الجو الصاخب .
 فقال رجل الفراش بقلق :
 — من الخلق أن نترك هذين العملاقين يتخاصمان .
 فقال ذو البدلة السوداء :
 — ماذا نجرم أن تقع المصلحة ؟
 وتقدمت الممثلة من رجل المضاء وقالت وهي تشير إلى الأم :
 — يوجد صغار نيام !

فكظم كل حنقه . وقال الروسي بوجه متجههم مخاطبا زميله :
 — تهاني ..
 فقال الآخر بازدياء :
 — تهاني ..
 وذهبا مع الممثلة فاتخذا لهما موقفا .
 * * *
 ومن وراء الستارة خرجت فتاة جميلة في العشرين من عمرها ، في منى
 جيب ، معلقة حقيبتها بكتفها ، ووقفت في وسط الحجرة وقالت :
 — أنا فتاة مثقفة ، أتقن العربية والإنجليزية وأعمال السكرتارية ، أريد وظيفة
 سكرتيرة .
 هرش رجل الفراش ذقنه أما ذو البدلة السوداء فقد سألها :
 — ألم تقيدى نفسك في إدارة القوى العاملة ؟
 — بلى ..
 — عليك أن تنتظري دورك .
 — طال الانتظار ، أريد وظيفة حرة .
 فقالت لها الممثلة :
 — أعرف شخصا ما في حاجة إلى سكرتيرة !
 — إنى مستعدة لمقابلته في الوقت الذي يحدده .
 فقال رجل الفراش :
 — ولكنك لا تعرفين عنه شيئا ؟
 — أعرف عملي وكفى .
 فقال الرجل الآخر :
 — فكرى قليلا ، إن أحدثك بلسان أب .
 — كأنك يا سيدى تخاف على ؟

— الناس أشرار يا ابنتي وأنت صغيرة السن ..
 — لست صغيرة .
 — ما زلت في طور البراءة !
 — لست هشة ولا خوف على ..
 — إنك تعرضين نفسك لخطر فادح .
 — إني أحترق هذا الإشفاق !
 — إني أب ..
 — بل جد ، وأقدم من ذلك !
 — سأمحك الله .
 — سأجد في العمل حريتي وكرامتي .
 — قد .. قد ..
 — لا أسمح لأحد بالتدخل في شئوني .
 — ثمة أخطار ..
 — أخطار ! .. ألم تسمع عن غزاة القضاء ؟
 — معذرة يا آنسة .
 فقال ذو البدلة السوداء : ..
 — ليتك تعرفت نعمة السكوت .
 فقالت لها المعلقة :
 — انضمي إلينا مؤقرا ، ثمة شركة في دور التكوين .

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل عجوز أنيق الملبس ، وقف في
 وسط الحجر وقال بنبرة شبه باكية :
 — يا بني ، عد إلى أبيك .. طلباتك مجابة .

فسأله ذو البدلة السوداء : ..
 — متى أختفى ؟
 — منذ أسبوع ..
 — بحثت عنه في مكانه ؟
 — لم أترك مكانا واحدا ..
 — ما عمره ؟
 — ستة عشر عاما .
 — ما مشكلته ؟
 — كل شيء ولا شيء بالذات ..
 — رأى ، سلوك ، ذوق ، هه ؟
 — نعم وعلم الله ما راعيت إلا مصلحته .
 فقال له رجل الفراش :
 — إني أرى لك .
 — شكرا .
 — ليس زماننا بزمان الآباء .
 — زمان قدر .
 فصاح به ذو البدلة السوداء :
 — لا تسب الزمان فهو الدولة .
 فعاد الرجل يردد بهدوء حزين :
 — يا بني ، عد إلى أبيك .. طلباتك مجابة .
 واختار لنفسه موقفا جنب حامل الكتب .

من وراء الستارة خرجت فتاة صعيدية حاملة مقطفا كبيرا ، تبعها على الأثر

صعيدى فى الخمسين ، وقفا فى وسط الحجرة فسالت الفتاة :

— لم جئنا إلى هنا يا أبى ؟

فهوى بكفه على وجهها وصاح :

— لأنقذ شرفى من الفساد .

ندت عن الفتاة صرخة مدوية . رمت بالمقطف وجرت نحو الفراش فأحاطها الرجل بذراعه . سرعان ما لحق بها الأب ولكى يخلصها من ذراع الرجل انهال على صدره ضربا حتى سحب الرجل ذراعه متأوها . جذبها إلى وسط الحجرة ، طرحها أرضا ، استل خنجره وانهال عليها طعنا حتى أخذ أنفاسها . ثم دفنها فى المقطف ، وغطاها بخمارها ، وهو يتمتم بتشف :

— الآن ردت الحياة إلى .

فقال له ذو البدلة السوداء :

— ستفقدنا وراء القضبان أو فوق المشنقة .

فقال باستهانة :

— طظ !

— متى تحترم القانون ؟

— طظ .

وحمل المقطف ومضى به صوب الفراش فدفعه تحته . تأوه رجل الفراش وقال :

— يا لك من وحش .

فقال له بازدرء وهو يرجع إلى وسط الحجرة :

— كيف بعد ، تلك من الرجال .

— كيف طلوعتك بذلك على قتل ابنتك ؟

— يوجد شئ اسمه الشرف .

— وتوجد أيضا الحماقة .

فأشهر خنجره مرة أخرى وهو يتساءل فى رنية :

— ولكن إذا البدلة السوداء يادر إليه فأخذه من ذراعيه إلى الناحية الأخرى .

وترامى عزف أوركسترا وتحت بلدى فى وقت واحد . وخرج من وراء الستارة رجلان ، أولهما فى لباس مغنى أوبرا والآخر مغنى بلدى . وقفا فى وسط الحجرة وراحا يغنيان فى وقت واحد ، كل بطريقته . فأحدثا صخيا متافرا مزعجا مضحكا . ولما ختما غناءهما تصافحا يبرود ، مغنى الأوبرا فى احتقار لم يفلح فى مداراته ، والمغنى البلدى دارى ضحكة أو شكت أن تقلت منه . فى أثناء ذلك تقلص وجه رجل الفراش من الانزعاج ، وتساءل :

— أيكما مس أم ألم ملح ؟

— نحن بخير .

— لماذا تصرخان ؟

— غنينا كأحسن ما يكون الغناء ..

— أكان ذلك غناء ؟

— أسمعناك الشرق والغرب معا .

— ألم يكن الأفضل أن نسمع شكلا على حدة ؟

— أصلنا نتمنى إلى مؤسسة واحدة ..

وزاد الأوبرالى على ذلك أن قال :

— أنا المستقبل ، وزميلي الفاضل يمثل الماضى ..

فغضب المغنى البلدى وقال :

— أنا مغن ، أما هذا الرجل فهو مجنون يصرخ بلا سب .

وتبادلا صفعتين ، وتوثبا لعراك أشد .. فصاح رجل الفراش :

— اذهبا .. اتركا فى سلام .

فقال ذو البدلة السوداء باستياء :
— تأدب في مخاطبة المغنين الرسميين !
وأشار إلى الرجل فأمسكا عن الخصام وذهبا معا إلى الناحية الأخرى .

وتحركت الستارة فخرج من ورائها طالب ثم شرطى ، وقف في وسط الحجرة
وهما يتبادلان نظرة متوجسة ، وسأله الشرطى :

— لم تتسكع في الطرقات ؟

فتساءل الطالب بتحد :

— لم تبغنى كظلى ؟

— أنا ظل الأشياء المعوجة !

— ألا تشم في الجو رائحة غبار خائق ؟

فتشم الشرطى الجو وقال :

— في الجو غبار خائق !

— إني أبحث عن هواء نقي ..

— ولكنك بتسكعك تثير مزيدا من الغبار الخائق ..

فضحك الطالب ضحكة جافة وقال :

— قليل ينشر جناحيه بين الشمس ما زالت في كبد السماء فما تفسرك

لذلك ؟

— لعل الليل أسر : أو أن الشمس تباطأت ..

— فما علاقة ذلك بتحديد مرات السقوط ؟

— مثل علاقة هذا العالم بالحكمة ..

— واضح أنك مهبط ..

— وأوضح فيه أنك قليل الأدب .

وقادف الطالب الشرطى بطرية فلم تصبه ولكن أصابت رجل الفراش فتأوه

دون أن يرفع رأسه عن الجريدة . تراجع الشرطى خطوات ، لوح بهراوته
استجماعا لقوته ولكنها في حركاتها العشوائية أصابت رجل الفراش في قدمه
ومنكبه فتأوه مرة أخرى . تبادل الضرب حتى نزفت دماؤهما فتباعدا وهما
يترنحان من الإعياء والإمهاك . وهتف رجل الفراش :

— وما ذنبى أنا ؟

فقال ذو البدلة السوداء :

— لا تفتأ تتدخل فيما لا يعنك !

— ولكن القتال يدور في حجرة نومى ..

— عيال فأنت أصلح شاهد للإدلاء بما رأى ، ما سبب المعركة ومن البادى

بالضرب ؟

— للمعركة أسباب غير عادية .

— مثال ذلك ؟

— الغبار والتسكع والليل والشمس ..

— يا لك ممن شاهد فاجر !

— أقسم لك ..

فقاطعه بحدة :

— ومرات السقوط في الامتحان ألم تسمع بها ؟

— إن سمعى ثقيل كما تعلم .

— ها أنت تعود لادعاء الصمم ، واضح أنك مغرض !

— علم الله ..

— فمن الذى بدأ الضرب ؟

تلقيت ضربتين متعاقبتين ولكن تعذر على تحديد المصدر البادى !

— فاجر ، ألم أقل إنك شاهد فاجر ؟

— دعنا من التحقيق ؟
 — واضح أن أعصابهما تحتاج إلى عقاقير فعالة .
 — الصيدليات ملأى بالعقاقير .
 — الحاجة ماسة إلى طبيب لا إلى شرطي .
 — ألسن طبيبا ؟ .. إنى أناقشك طيلة الوقت باعتبارك طبيبا !
 — أنا طبيب حقا ، ولكنى فى إجازة مرضية ..
 — أصبحت قادرا على الحركة فى بيتى فأنا أغادر الفراش وقتما أشاء ، ولكن
 تلزمنى بضعة أيام راحة قبل أن أمضى إلى الخارج لمزاولة نشاطى المعتاد .
 — حسنا ، لا تبدد قواك فى الثرثرة حتى تسترد صحتك !
 ومضى الرجل إلى الطالب والشرطى فأخذهما إلى موقف فى الناحية
 الأخرى .

وتحركت الستارة فخرج من ورائها زنجى وعربى مسلح ، وقف فى وسط
 الحجرة وقال الزنجى :
 — المشوار طويل فيما يبدو .
 — أجل .. إنه يبدو كذلك .
 — أين أنت ذاهب ؟
 — إلى آسيا ، وأنت ؟
 — أنا متردد بين أمريكا وأفريقيا .
 — وما مشكلتك ؟
 — فى أمريكا يحاصرنى الاضطهاد باعتبارى الأقلية ، وفى أفريقيا يحاصرنى
 باعتبارى الأغلبية ؟
 — ياله من اضطهاد كاللندر ، ما سبه ؟
 — لأنى أسود ، هكذا يقال .

— أن تضطهد وأنت أقلية فتلك رذيلة شائعة ، ولكن كيف تضطهد وأنت
 الأغلبية ؟
 — ثمة رجل أبيض يحتكر الاضطهاد ، ويمارسه حيثما وجد .
 — ولكنى أراك لا تحمل سلاحا ؟
 — كان لنا زعيم يدعو إلى الحب والسلام .
 — وهل استجابوا له ؟
 — قتلوه غيلة !
 — ما كان أجدره أن يقتل وهو يقاتل .
 — آمن بأن الحب أقوى من جميع الأسلحة .
 — لا مكان إلا للنوعين من الإنسان ، واحد يقاتل بقلب ملؤه الشر ، وآخر
 يقاتل بقلب ملؤه الخير .
 — لعلك من النوع الأخير ؟
 — لعل .
 — وما مشكلتك أيها المقاتل ؟
 — لقد سرق .
 — سرقوا مالك ؟
 — سرقوا وطنى !
 — وطنك ؟
 — بجناله وأنهاره وحقوقه وتاريخه ثم قذفوا به إلى العراق .
 — أى قطاع طرق !
 — وراءهم يقف الذين يضطهدونك .
 — لذلك تحمل السلاح ؟
 — ولذلك يجب أن تحمل السلاح .
 — ولكن أين أجده ؟

وهنا قال رجل الفضاء الروسي : ..
— تجده عندي إذا أردته .

— ولكني لا أملك ثمنه ..
— يمكن الاتفاق على ذلك دون إرهاق .

فصاح رجل الفضاء الأمريكي مخاطباً الزنجي :
— تجنب هذا الرجل فإنه لم ير الله في السماء .

فقال رجل الفضاء الروسي :
— أحذرك من أضاليل هذا الزميل فقد زعم أنه رأى إلهاً أمريكياً .

— لم أقل إنه يحمل الجنسية الأمريكية ولكن ثبت لي أنه إله العالم الحر .
فسأله الزنجي :

— من أنت عند ازدراء للسود ؟
— إنه نور قطيعي أن يفضل من عباده من على صورته .

— هل أدركت في حضرته سر ذلك كله ؟
— إن حكمته تجل عن أفهامنا، إنه فوق التصور والخيال، أه لو رأيته في مقامه

السنى فوق البيت الأبيض !
فصاح رجل الفضاء الروسي :

— ألم أقل لك إنه دجال ؟
وقال العربي المسلح :

— دعونا من السماء ، على الأرض تسرق أوطان ويضطهد أبرياء ، وعلى

تسرق والاضطهد أن يعمل السلاح ، وأن يتعاون مع من يعطيه السلاح ، وأن

تفسر حكمة الله على ضوء ذلك !
— أنت شيوعي !

— أنت اممي يالي !
— أنت ظالم !

— أنت أسود !

— أنت دجال !

— أنت سفاح !

وتأوه الرجل في فراشه وعيناه لا تتحولان عن الجريدة ، فسأله ذو البدلة
السوداء .

— مالك .. ماذا تريد ؟

— أريد سلاحاً !

— ولكن إجازتك المرضية لم تنته بعد .

— أريد سلاحاً !

— اصبر ..

— ألم تسمع ما قيل ؟

— سمعت واقتنعت ولكن إجازتك لم تنته بعد .

— إني أقرأ في رأسك أفكاراً غريبة !

— إن أردت الصراحة فإن تعليقاتك المتكررة لا توحى بالثقة !

— لعلك لا تعرفني على حقيقتي .

— إني أعرفك أكثر مما تتصور !

— أنا رجل مخلص ومستعد للقتال .

— ولكنك غير مدرب على استعمال السلاح .

— إذن أتدرب .

— اصبر حتى تنتهي إجازتك .

— طيب .. أعطني كأساً من الويسكي ..

— معك عملة صعبة ؟

فتهد الرجل بصوت مسموع ، وعند ذاك قال له رجل الفضاء الأمريكي :

— أتريد السلاح حقاً ؟

— أجل ..

— والويسكى ؟

— أجل ..

— عهد الله أعطيك ما تريد من سلاح وويسكى .

— حقا ؟!

— كلمتى ميثاق !

— ولكنى لا أملك نقودا .

— لا يهم .

— أعطينى ما أريد بلا مقابل ؟

— بشروط لا تستحق الذكر ، انتظر ..

وتحرك متجها نحو الفراش ، ولما بلغه وجد ذا البدلة السوداء فى انتظاره ، فقال :

— أريد أن أحادث هذا المريض على انفراد .

فقال ذو البدلة السوداء :

— ليس بينى وبينه سر !

— المرضى فى وطننا الأمريكى يتمتعون بحريات هائلة !

فقال الزنجى :

— كذاب !

تحول نحوه غاضبا ولكن ذا البدلة السوداء حال بينهما ، ثم أوسع لهما مكانا

بين الآخرين .

من وراء الستارة خرج رجل قصير نحيل ، يلقه الحجاب حتى يغطى رقبته ، وفى وسط الحجره وراح يظفر فيما حوله بارتباك . هم بالكلام مرة ومرة ولكن لم ينس . وإذا برجل جديد يخرج من وراء الستارة . ضخيم مهيب ذو لحية مدبية ،

اتخذ موقفه أمام الرجل الأول فأخفاه عن الأنظار وقال بنبرة متعجرفة :

— أنا رجل ألمانى من بون .

فسأله الألمانى الأول :

— إليك معلومات جديدة عن المارك ؟

فقال بالنبرة المتعجرفة :

— لا أقيم الآن فى ألمانيا ، لم أجد هناك المعاملة اللائقة ، أنا مواطن عالمى ،

ولدى اختراع كيماوى مذهل .

فسأله رجل الفراش :

— أله فائدة فى تجديد الشباب ؟

وسأله الزنجى :

— هل يجدى مفعوله فى تهذيب الخلق الإنسانى ؟

وسألته الأم :

— هل ينفع غذاء للأطفال ؟

فقال :

— إنه مسحوق غامض ، يكفى الجرام منه لإبادة خمسين مليوناً من البشر .

هب الجميع فى اهتمام ساحق . حتى الأمريكى والفيتمى استيقظا ووثبا

واقفين . قال الألمانى الأول :

— لعلهم جهلوا مقاصدك أيها الأخ العبقري فلم يحسنوا معاملتك ، غدا إلى

وطنك .

ولكن رجل الفضاء الأمريكى قال :

— أيها الأخ العبقري ، أمريكا هى وطن العلماء ، عندنا برج بابل يعيش فيه

العلماء من مختلف الأجناس عيشة الأباطرة ، اذهب إلى وطنك الحقيقى أمريكا !

وقال له رجل الفضاء الروسى :

— ليكن مسحوقك فى خدمة الملايين الكادحة لا فى خدمة حفنة من مصاصى

الدماء . أنت لست بالإنسان العادي ، أنت لست بالإنسان العادي .

وقال له العربي :

— يلزمني ملليجرام من مسحوقك العبقري !

وسأله ذو البدلة السوداء :

— هل سبق لك زيارة معبد الكرنك تحت شمس الشتاء المشرقة ؟

فقال الألماني بعجرفة :

— تلزمني مهلة للتفكير .

وذهب إلى ناحية الواقفين فاتخذ مكانا . وبذهابه ظهر مرة أخرى الرجل

القصير النحيل .

وقال له الرجل الفراش :

— كان المنتظر أن تبدأ أنت بالكلام .

فاجسم في حياء دون أن ينس فسأله :

— بالله ماذا يمنعك من الكلام ؟

فغضب على حياته وقال :

— أعتقد أنني بصدد اكتشاف طريقة ناجعة لمعالجة السرطان .

وساد صمت شامل حتى واصل حديثه قائلا :

— لقد حاربنا على مرضى كثيرين فنجحت بنسبة ٤٠ ٪ ولكنني في حاجة إلى

مزيد من البحث والتجريب وتلزميني تكاليف باهظة !

وساد الصمت . صمت ثقيل ، حتى قال الفرنسي هامسا :

— هذا الرجل يستحق التشجيع ، ولولا أزمة القرنك ..

فقال الألماني :

— إنه جدير بالتشجيع ولكن من أدرانا أنه ليس دجالا ؟

فقالت الممثلة :

— إن تكشف عن دجال فأنا أُرشدك لتمثيل دور في فيلمنا المشترك .

وقال رجل الفضاء الأمريكي :

— أبحاث السرطان متقدمة عندنا ..

فقال رجل الفضاء الروسي :

— يمكن أن نستضيفك عاما في المعهد الطبي الشيوعي .

فصاح رجل الفضاء الأمريكي :

— يمكن أن نستضيفك عامين ولكن إذا زرت روسيا تعذر عليك دخول

بلادنا .

ونفخ رجل الفراش بصوت مسموع فسأله ذو البدلة السوداء :

— ماذا تشكو ؟

— أريد كأسا من الويسكي .

— تمر بك الأحداث وأنت لاه عنها بشهواتك !

— أعطني سلاحا ..

— تريد أن تسكر وتطلق النار على غير هدى !

وأشار إلى الرجل القصير النحيل إشارة خاصة فمضى ليتخذ موقفا بين

الواقفين .

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل ملفوفا في كفن لا يظهر منه إلا

رأسه ، وقف في وسط الحجرة وقال :

— أنا المدير العام لمؤسسة م . م . م .

فقال له رجل الفراش :

— تشرفنا يافندم .

— انتقلت إلى رحمة الله على أثر نوبة قلبية أصابتنى وأنا جالس إلى مكتبي .

— ليرحمك الله .

— الموت أكبر كارثة في الوجود ، أكاد أجن كلما تصورت أن العالم سيمضي

في طريقه عقب اختفائي كأنتي لم أعيشه دقيقة واحدة . . .
 — أكنت تتوقع أن يتوقف من الحياة إكراماً لك ؟
 — هذه هي مأساة الوجود الحقيقية التي تفقده أي معنى من المعاني !
 — صدقني فإن العالم مثقل بهنومه بحيث يغرق له ألا يشعر بموتك .
 — ذهبت الحياة بجمالها وسحرها وآمالها . . .
 — ليرحمك الله . . .
 — ما لقلبك جامدا هكذا ، حتى الحيوان يحزن .
 — حزني للحياة لم يترك في قلبي موضعاً للحزن على الموت .
 — مت وحيداً وها أنا أحزن وحدي .
 — لتكن الجنة مثواك .
 — وأنا والدس وص بالجامعة ، وشقيق أبتؤسسة م . م . م . ، وعم د
 بمؤسسة م . م . م . ، وابن خالة ز بمؤسسة م . م . م . ، وستشيع الجنازة من
 مسجد عمر مكرم في تمام الثانية عشرة ظهراً ولا عزاء للبييدات .
 — سأعزى بتلغراف . . .
 — ولم لا تشيع جنازتي بنفسك ؟
 — إني مريض كما ترى . . .
 — تستطيع أن تشيع جنازتي لو بك رغبة في ذلك .
 — أخشى أن أصاب بنكسة .
 — أظن لا تفكر إلا في نفسك .
 — لا وقت عندي للتفكير في نفسي ولا فيمن يموت .
 — ليت يوماً كان قبل يومي .
 — أنتم السابقون ونس اللاحقون . .
 وبدأ الرجل يتحرك ببطء ليتخذ موقفه بين الجماعة . وفي أثناء سيره قال ذو
 البذلة السوداء :

— مات رجل من جيل الثورة المضادة .

فقال رجل الفضاء الأمريكي :

— لقدنا صديقاً ذا استعداد طيب للتفاهم .

وقالت الممثلة :

— نقص رواد السينما رجلاً ولا نكل الرجال .

فقال رجل الثورة المضادة :

— من واجبي ، من حقى ، أن أقول رأيي كما يجدر بصحفي يحترم نفسه

ويحترمه الجميع ، وأن أصيغه بالوضوح الكامل لينتشر في الظلمات إلى رؤية مضيئة

لعلنا نهتدي إلى مرفأ آمن في هذا البحر العاصف الذي تتلاطم أمواجه كجبال من

الظلام ، سأقول الحق بوضوح مهما كلفني ذلك من جهد ومن تضحية . لذلك

أقول لكم :

الوعي قضية ، تسير مسارها الطبيعي إلى نقيضها وهو اللاوعي ، وعلى أثر

تقدم مطرد يتكون تركيب جديد من النقيضين هو المرض . بمعنى آخر الوعي +

اللاوعي = المرض . إن يكن عضاباً فهو مرض نفسي وإن يكن ذهاباً فهو مرض

عقلي . ذلك أن كل شيء يخضع في النهاية للديالكتيك . ولا يلبث التركيب

الجديد (المرض النفسي أو العقلي) أن يتحول إلى قضية جديدة تبحث بدورها

عن نقيضها كما تبحث المراهقة عن عريس ، ونقيض المرض هو الصحة النفسية ،

ثم اندمجا تركيب جديد آخر يحكم حتمية الديالكتيك ، وهذا التركيب الجديد

يتكون من المرض والصحة ، مرض دياالكتيكي وصحة دياالكتيكية ، وهي حال لا هي

صحة ولا هي مرض ، وإذا ترجمناها إلى لغة فلسفية أمكن أن نطلق عليها حال

وجودية . . . ويغلب عادة أن تكون من نوع الوجود في ذاته ولكن يتدخل قوى

قهريه باغية تتحول إلى نوع آخر هو الوجود لذاته ، ويخشى في تلك الحال أن تتحول إلى وضع أجوف أو ما يسمى في الهندسة بالفراغ ، فراغ مشحون بالقلق السرمدى ، ولا علاج لذلك إلا بالمزيد من الديالكتيك . هذه هي حقيقة المسألة بلا حشو ولا إسهاب لا موجب له ، شرحتها متوخيا البساطة والوضوح ، بلغة شعبية جديدة بمخاطبة شعب عظيم يمر بلا شك بمحنة عصبية ، ويتوثب لقهر ما يعترض سبيله من عقبات ، مصمما على الصمود والنجاح ، ألا هل بلغت ؟

أعقب كلمته صمت ، استمر حتى خرقة رجل الفراش قائلا :

— شكرا يا سيدى ولكن ثمة أسئلة حائرة أود أن أوجهها إليك .

فقال بهدوء :

— صناعتي هي الكتابة لا الكلام .

— ولكنها أسئلة ملحة يا سيدى .

— اكتبها في ورقة وسأجيب عليها كتابة .

وتكرم بإعطائه ورقة وقلما فتناولهما الرجل وسجل أسئلة ومند بها يده إليه . قرأها الصحنى بعناية ثم سجل بدوره إجاباته عليها ثم راح يقرأها :

— بالنسبة للسؤال الأول أجواب : محتمل ،

بالنسبة للسؤال الثانى الجواب : بين بين .

بالنسبة للسؤال الثالث الجواب : نعم ولا .

بالنسبة للسؤال الرابع الجواب : لعل وعسى .

بالنسبة للسؤال الخامس الجواب : إنه سلاح ذو حدين .

بالنسبة للسؤال السادس الجواب : خير الأمور الوسط .

فتمتة رجل الفراش :

— شكرا يا سيدى .

فرد الصحنى الشكر بهزة من رأسه وانتقل إلى الناحية الأخرى . طوى رجل الفراش الجريدة ثم احتسى آخر رشفة من الشاي . هبط إلى أرض الحجره . راح

يسوى جلباب نومه ويتشاءب . وفي الحال أحدق به جميع الحاضرين بغير استثناء . جعلوا يدورون حوله مرددين مقاطع من أقوالهم السابقة في وقت واحد . تظلل دورانهم طلقات نارية ، انفجار قنابل ، أزيز طائرات ، صرخات آدمية . وكلما أتم أحدهم دورته زحف تحت الفراش واختفى حتى خلت الحجره ولم يعد يقى بها سواه . وفتح الباب وظهرت عنده المرأة وهي تتساءل :

— شربت شايبك ؟

فأحنى رأسه بالإيجاب فقالت وهي تختفى في الداخل :

— أظن أن لنا أن نناقش مشاكلنا العاجلة !

فمضى نحو الباب وهو يتمتم :

— استعنا على الشقا بالله .

روح طيب القلب

(شهر العمل)

تفحصها الرجل باهتمام فتلفت نظراته بعينين حذرتين مستطلعتين . كان يجلس مسند الظهر إلى باب الضريح الصغير على حين تربعت هي بين يديه . لم يكن في ساحة الضريح الصحراوية سواهما أحد في صحبة شعاع الصباح الباكر . وكان الضريح صغيراً مثل زنزانة ، ولا تناسب بين جسم الرجل التحيل وبين عمامته الخضراء الكبيرة ولحيته الكثيفة السوداء ، وثمة تناقض أشد بين جلباب الفتاة الرث القدر وقدميها الخافيتين وبين جمال وجهها الأسر . أشار الرجل إلى الضريح وقال :

— تبارك ذكره ، كان بطب الجراح إعجازه وشره .

فتمت الفتاة بسذاجة :

— تبارك ذكره .

— لعل الذي جاء بك إليه جرح عز على البشر شفاؤه ؟

فتمت فيما يشبه البلاهة :

— نعم .

فسألها بارتياح :

— ما سنك يا فتاة ؟

— لا أدري .

— ولكن أمك تدرى ؟

— لم أر لي أما ..

— توقعا الله ؟

— لا أدري .

— وأين أبوك ؟

— لم أر لي أبا .

— وأين تعيشين ؟

— في الدنيا !

— ماذا تعملين ؟

— أسرح بالفاكهة الفاسدة يجود بها الفاكهي أو يبيعها بثمن بخس .

— ولكنها تجارة فاسدة !

— لها زبائن يتنافسون في الحصول عليها .

— وأين تقيمين ؟

— في الخلاء صيفا وتحت البواكي شتاء .

— أتحملين ثقل الجو ؟

— وهل ثقل الجو يؤذي !؟

وخفض الرجل صوته درجة وهو يسألها :

— وهل صنت شرفك يا فتاة ؟

— شرفي !؟

— ألا تعرفين معنى الشرف ؟

— الشرف !؟

فتردد لحظة ثم تساءل :

— ألم يغرر بك شاب ؟

— يغرر بي !؟

— يخدعك لينال منك مأربه ؟

— نحن نعمل معا ونلعب معا وننام معا !

— يا للجنة !

— اللعنة !؟

— لعلك قصدت صاحب الضريح مطاردة بعذاب الضمير !

— الضمير !؟

— لا تعرفين الضمير أيضا !
 — أيضا !
 — أنت راضية عن حياتك ؟
 فقالت بحماس : نعم ، أنا راضية عن حياتي .
 — الحياة جميلة بالرغم من كثرة المشاجرات .
 — الشجار إذن هو ما يقلقك ؟
 — كلا ، إنه يهب الحياة مذاقا طيبا !
 فنفخ الرجل متسائلا :
 — ما دينك يا فتاة ؟
 — ديني ؟
 — ألا تعرفين الدين ؟
 — الدين !
 فسألها بحدة :
 — ماذا جاء بك الى ؟
 — أنت الذي أمرتني أن أجلس فجلست .
 — ولكني رأيتك قادمة نحوى ؟
 — نحو الضريح !
 — لماذا ؟
 — ظننت أنه يصلح مأوى لى .
 — أنت بلهاء أم مجبونة ؟
 لاذت الفتاة بالصمت ، فقال :
 — إنك تعيشين في الخلاء صيفا وتعت الدواكى شتاء فماذا جعلك تبحثين عن مأوى ؟
 بدا أنها تهم بالكلام ولكنها أظلمت شفتيها راجعة الى الصمت فغمغم الرجل

في ضجر :
 — إنك شيطانة .
 فسألته ببساطة :
 — من أنت ؟
 فقال بغضب :
 — لا أعرفك إلا الشياطين !
 — ماذا تعمل ؟
 — أنت لا تعرفين الشرف أو الدين فكيف تدركين معنى الولاية ؟
 — لماذا أنت غاضب ؟
 — ملعونة أنت فى الدارين !
 — الدارين ؟
 — فى الدنيا والآخرة .
 — أعرف الدنيا ولكن ما الآخرة ؟
 — اغربى عن وجهى !
 نهضت الفتاة قائمة . سقطت من داخل الجلباب بين قدميها قطعة حلى .
 انحنى بسرعة فالتقطتها ولكن يد الوالى قبضت على ساعدها بقوة ثم وثب قائما وهو يقول :
 — ما هذا !
 هتفت به أن يطلق يدها ولكنه قبض على منكبيها وراح ينهرها بعنف فتساقطت قطع الحلى حتى استقرت على الأرض كنزا صغيرا . وفى تلك اللحظة جاء خادم الضريح فرأى الصراع بين الفتاة والولى ورأى الكنز ، ردد البصر بينهما ثم حمل فى الكنز متسائلا فى ذهول :
 — ماذا يحدث ؟
 فقال الولى :

— لصة من صعلوكات الطريق .
 — ماذا جاء بها إلى هنا ؟
 — توهمت الشيطانة أنه يمكن إخفاء سرقتها في الضريح .
 — وماذا تنوى أن تفعل بها ؟
 — ما ينبغي فعله .
 — وولولت الفتاة :
 — دعني وشأني .
 — فصاح بها :
 — اخرسني يا لصة .
 — يدك تهشم عظامي .
 — من أين لك هذه الحلي ؟
 — إنها ملكي !
 — ورثتها عن أهلك ؟
 — وعاد خادم الضريح يسأل :
 — ماذا تنوى أن تفعل بها ؟
 — ما ينبغي فعله .
 — وما الذي ينبغي فعله ؟
 — عليها أن نسلحها للشرطة .
 — أليس من الحائر أن تكون بريئة ؟
 — مستكشف العدالة بإظهار الحقيقة .
 — ولكن العدالة ندماء يا ولي الله .
 — من أين لها هذه الحلي ؟
 — الله يروق من يشاء بغير حساب .
 — أترى أن نطلقها ؟

— لن تكون بمأمن من قطاع الطرق .
 — لم يبق إلا أن أضعها تحت رعايتي !
 — ولكنك ولي وهيئات أن تحسن رعاية الأمور الدنيوية .
 — فقال الولي بارتباب !
 — أرى أحلاما غريبة تراودك !
 — لعلها نفس الأحلام التي تراودك !
 — وتوسلت الفتاة قائلة :
 — دعني أذهب .
 — فقال لها الولي وهو يخفف من قبضته عليها :
 — لا أمان لك في دنيا الشرور .
 — وقال لها خادم الضريح :
 — سأفتح لك الضريح كما تشائين !
 — ولكن الفتاة قالت بإصرار :
 — أريد أن أذهب .
 — وحاولت أن تخلص ذراعها ، ولكن الولي شدد قبضته ، وأقبل خادم الضريح يساعده .
 — وتبادلا نظرة من فوق رأس الفتاة قال خادم الضريح :
 — يلزمنا وقت لتبادل الرأي .
 — وتبادلا غمزة حملا الفتاة على أثرها إلى داخل الضريح . غابا في الداخل دقائق
 — ثم خرجا يتفصدا عرقا .
 — أغلق الخادم الباب ثم مضى إلى الولي وهو يقول :
 — الخير في الاتفاق .
 — لا تنس أنها جاءت إلى بقدمها .
 — بل كانت تقصد الضريح .
 — اكشف أفكارك .

— نتقاسم الغنيمة !

— من العدل أن ..

ولكن خادم الضريح قاطعه بحزم :

— نتقاسم الغنيمة !

فصمت الولي قليلاً ثم تساءل :

— وماذا تفعل بالفتاة ؟

— نظردها ، ونهددها بالويل إن عادت ..

— قد ..

— إنها سارقة ولن تلجأ إلى الشرطة ..

— قد تعرض علينا عصابة من الأشرار لا قبل لنا بها .

— أترى من الأفضل أن نتخلص منها ؟

— ماذا تعنى ؟

— أن نقتلها !

— نقتلها ؟

— ثم ندفعها في الضريح وهو خال كما تعلم .

فقال الولي باضطراب :

— ولكن لا قلب لي على القتل !

فقال الخادم بارتياح :

— ولا قلب لي أيضاً ..

— فما العمل إذن ؟

وتفكر في صمت ملياً حتى قال خادم الضريح بظفر :

— الرأي أن نستعين بعبد بقنا الشرطي !

— فكرة طيبة ..

— وهى المخرج الوحيد لنا .

— ولكن الغنيمة ستوزع على ثلاثة بدلاً من اثنين .

— خير من ضياع كل شيء .

وغادر خادم الضريح المكان . غاب فترة غير قصيرة ثم رجع بصحبة الشرطي

وهو يقول له :

— هذه هى المسألة بلا زيادة ولا نقصان .

هز الشرطي رأسه مفكراً على حين أقبل الولي نحوه قائلاً :

— عندك رأى والتقييد .

فقال الشرطي :

— ولكنها عقدة تحتاج إلى حلال وتحف بها المهالك !

فقال الولي :

— سنقبض على الفتاة وتبدأ من قورك التحقيق معها ، ثم تستولى باسم القانون

على الحلى ، وعند ذاك نتشفع نحن في إطلاق سراحها ، وبمجرد أن تفك قبضتك

عنها ستطير كالحمامة ولن ترجع إلى هذا المكان ما امتد بها العمر !

فقال الشرطي :

— ولكنى لا أقبل الظلم ..

فتساءل خادم الضريح بانزعاج :

— أى ظلم !، إنها صعلوكة شريرة قطاعة طريق !

فقال الشرطي :

— الظلم أن توزع الغنيمة علينا بالتساوى !

فوجم الرجلان وقال الولي :

— لولا صداقتنا الوطيدة لقمنا بالمهمة وحدنا .

— لولا الضرورة ما لجأتم إليّ !

— لا تكن سبيء الظن أيها الصديق .

— لي النصف ولكل منكما الربع .

— لا تغال أيها الصديق .
— لا تبددوا الوقت هباء ..
وضمت قليلا ثم استدرك :
— ولكن يلزمنا مشمن !
— مشمن ؟

— للوزن والتقييم والفحص .
— ترى هل يفعل ذلك لوجه الله ؟
— ماذا فعلت أنت لوجه الله ؟
— ولكن سينقص ذلك من نصيب كل منا ؟
— من نصيب كل منكما !!
— يجب أن نتحمل العبء الجديد بالتساوي
— أنت تتنامى أنك تخاطب القانون !
— الرحمة أيها الصديق .
— القانون لا يغمض عينيه بلا مشمن .

فقال الولي :
— أنا صاحب القيد .
وقال خادم الضريح :
— أنا صاحب الضريح .
فقال الشرطي بخدة :

— أملاك رحمة أعظم من أن أهبكم ثروة بدلا من أن أسوقكم إلى السجن ؟
فهبط عليهما سميت وأجم مثل بالنسليم . وتسلم الشرطي الكنز فافترح أن
يذهب إلى المشمن ولكن إلى حامين أصرا على اصطحابه . وفيما هم يهيمون بالذهاب
جاء عجوز ضريز قابضا على يد شاب ضريز ، يتلمس طريقه نحو الضريح ، فعدل
الرجال الثلاثة عن الذهاب حتى تطمئن قلوبهم . بلغ العجوز باب الضريح فبسط

راحته عليه وتساءل بصوت مرتفع :

— أين خادم الضريح ؟
فأجابه الشرطي :
— الظاهر أنه مريض ، اذهب الآن وعد غدا .
ولكن العجوز قال :

— الباب المغلق لن يسد سبيل الرحمة . إن الرحمن أمر بها .
وأسند رأس الشاب إلى الباب وهتف :

— يا طيب القلوب الكسيرة ، إليك ابني المسكين ، فقد في حادث بصره ،
فتوقف في سبيل الرزق سعيه ، وأعياء الأطباء شفاؤه ، اشمله بنفحة من بركتك ..
هم الرجال الثلاثة بالذهاب مرة أخرى لولا صرخة نددت عن الشاب
الضريز . وهتف الشاب :

فسأله العجوز :
— مالك يا بني ؟

— أسمع صوتا !
— أي صوت يا بني ؟

— صوت طيب القلوب الكسيرة ولا صوت غيره !
تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلقة . ألصق العجوز أذنه بالباب ثم تساءل :

— ماذا سمعت يا بني ؟
— نفذ صوته إلى أعماق قلبي ..

وقال الشرطي بخدة :

— اذهبا اليوم وعودا غدا .
فصاح الشاب :

— لن أذهب ، إنه يناديني !
فقال الشرطي :

— أنا الشرطى ، وأقول لك إننى لا أسمع شيئاً ..
 فصاح الشاب بأعلى صوت :
 — امسكت ، دع صوت الرحمة ينفذ إلى قلبى ..
 — ولكن ذلك مخالف للقانون ..
 — امسكت ، طيب القلوب يهمس فى أذنى ، تكلم يا طيب القلوب
 الكسيرة ..
 وجذب صوت الشاب الضرير انتباه بعض الناس فيما بدا فأخذوا يتقاطرون
 على الساحة مجالينهم الزرق وأقدامهم الخافية . وقفوا ينظرون باهتمام ويتبادلون
 الهمس . واستشعر الرجال الثلاثة دنو خطر مجهول فحث الولى وخادم الضريح
 الشرطى على إنقاذ الموقف قبل أن يستفحل الخطر . ضرب الشرطى الأرض
 بقدمه وصاح بصوت أمر خشن :
 — أيها الشاب ، كف عن الهذيان .
 ولكن الشاب صاح بقوة :
 — طيب القلوب يتادبنى ..
 — كف عن الهذيان ..
 فقال المعجوز بضراعة :
 — ارحم شبابى وعجزه .
 — إنه يحدث فتنة .
 فقال المعجوز :
 — دعه يسمع ما يطرق أذنيه ، لا ضير من ذلك على أحد ..
 وأكثر من صوت من بين الناس قال :
 — لا ضير من ذلك على أحد ، لا ضير من ذلك على أحد .
 أما الشاب فراح يخاطب الضريح قائلاً :
 — يا طيب القلوب ، إنى أسمعك ، صوتك يملأ قلبى ، يحرك جذور

وجدانى ، إنى أصعد فى مدارج السماء يا طيب القلوب ..
 وهتفت أصوات من الشعب :
 — تبارك الله القادر على كل شيء .
 فصاح الشرطى :
 — تضليل وتحد لقوانين الأمن ..
 وقال الولى :
 — اذهب إلى ولى من أولياء الله أو طيب من أطباء الدولة !
 وقال خادم الضريح :
 — لقد انتهى عصر المعجزات !
 فعادت أصوات من الشعب تهتف :
 — تبارك الله القادر على كل شيء .
 ومضى الشاب الضرير فى مناجاته قائلاً :
 — ما أجمل صوتك يا طيب القلوب ، رقيق كالرحمة ، هامس كالسر ، عزيز
 كالنور ..
 فصاح الشرطى :
 — دجل يدعو للتجمهر دون إذن من الداخلية !
 ولكن الشاب واصل حديثه :
 — بكل جوارحى أصفى إليك ، أصفى إليك يا بشير النور والأمل .
 فتقدم الشرطى من الناس خطوات وصاح :
 — باسم القانون آمركم بالتفرق .
 فقال أكثر من صوت :
 — دعنا نشهد معجزة ..
 — اذهبوا وإلا حملتكم على الذهاب بالعصا !
 — لن تمنعنا قوة من شهود معجزة مباركة !

توثب الشرطى للهجوم فتوثب الجمهور للدفاع دون أن يتحرك عن مواقفه . وإذا بالشاب الضريع يهتف :

— ليفتح الباب ، ليفتح الباب ، بهذا أمر طبيب القلوب .

فارتفعت ضجة بين الجمهور وصاحت الأصوات :

— افتحوا الباب .. افتحوا الباب ..

وهتف الشاب الضريع متشكيا :

— إنه يدعوني إليه !

فهتفت أصوات في حماس جنوني :

— افتحوا الباب ، الروح تريد أن تنطلق ..

فقال خادم الضريع :

— لن أفتح احتراماً للأمن والقانون ..

عند ذلك بدأ الشاب الضريع يدفع الباب بمنكبه فتعالى هتاف الجمهور . وأراد الشرطى أن يمنعه بالقوة ولكن الشاب دفعه بعنف فرمى به بعيدا . وانفجر حماس الجمهور فاضطر الرجال الثلاثة إلى التنحي جانبا اتقاء لغضبة لا قبل لهم بها .

وفتح الباب تحت وقع دفعات الشاب القوية فاجتاح الهتاف الساحة كالانفجار . ولم يتردد الشاب فدخل متلمسا طريقه بيديه حتى اختفى عن الأنظار . وساد صمت . صمت عميق شامل تركزت الأرواح في الأعين المستطلعة . انعدم الزمان والمكان . وإذا بصيحة تند عن الداخل . ثم ظهر الشاب في الباب وهو يترنح . رفع يديه صوب السماء وهتف :

— أشهد الله أنى أرى !.. أشهد الله أن بصرى ردى إلى !

والتفت إلى الأعمى الضائع . صاح :

— أرى الضياء ، أرى الناس ، أرى السماء ، وقد رأيت الروح !

— الروح !

— تجسدت لعينى في صورة فتاة ترسف في الأغلال ..

— الله أكبر .. الله أكبر ..

— فككت أغلالها بمشيئة الله !

— الله أكبر .. الله أكبر ..

— وهى تقطر بهاء وجلالا وجمالا ..

— الله أكبر .. الله أكبر ..

— وبإذن الله سوف تظهر للأعين المؤمنة !

ووثب الشاب نحو الجمهور فوقف في مقدمته مستقبلا باب الضريع . وساد الصمت مرة أخرى . وتطلعت الأعين نحو الباب في لهفة عارمة . وفى خطوات وئيدة مترددة ظهرت الفتاة . ظهرت وهى تنظر إلى الجمهور فى دهول . تعالى الهتاف من الأعماق وركع الجميع فى خضوع .

— الله أكبر ..

— الله قادر على كل شيء .

— يا له من جمال !

— يا له من بهاء !

— ما لا عين رأت ..

وحان من البعض التفاتة نحو الرجال الثلاثة الواقفين فصرخوا فيهم أن يركعوا فاضطروا إلى الركوع اتقاء للغضب .

وصاح الشاب :

— إني خادمتك منذ الساعة وإلى الأبد ..

واستبقت أصوات الجمهور فى خشوع :

— رعايتك للغائب .

— رحمتك بالمريض .

— كرمك للكادح الفقير .

— غضبك على الظالمين .

نظرت الفتاة فيما حولها بدهول وتساءلت :

— أين أنا ؟

فقال الشاب :

— من السماء هبطت إلى أرضنا البعثة ..

— ماذا أرى ؟

— أناس طيبون جمعتهم المعجزة بعد أن فرقهم المنوم .

— إلى أشعر بدوار .

— إنه دوار من يرى خالنا .

— كادم يكتسون أنفاسي !

— لويل للأشجار حيث كانوا وحيث يكونون .

— اغتصير الخلق بلا رحمة ..

— جواهرك للطيبين لا للمفتصين .

—

— ليجد كل مؤمن بك بمكنون جواهره .

تهرز الرجال الثلاثة فرصة انهماك الجمهور وأخذوا يتزحزون عن مواقعهم بغية الهرب ولكن غشي الفتاة وقعا على الولي وخادم الضريح فأشارت نحوهما

— اجرومان !

انقض رجال على الرجلين فدفعوهما أمامهم حتى خرا أمام الفتاة . سألت

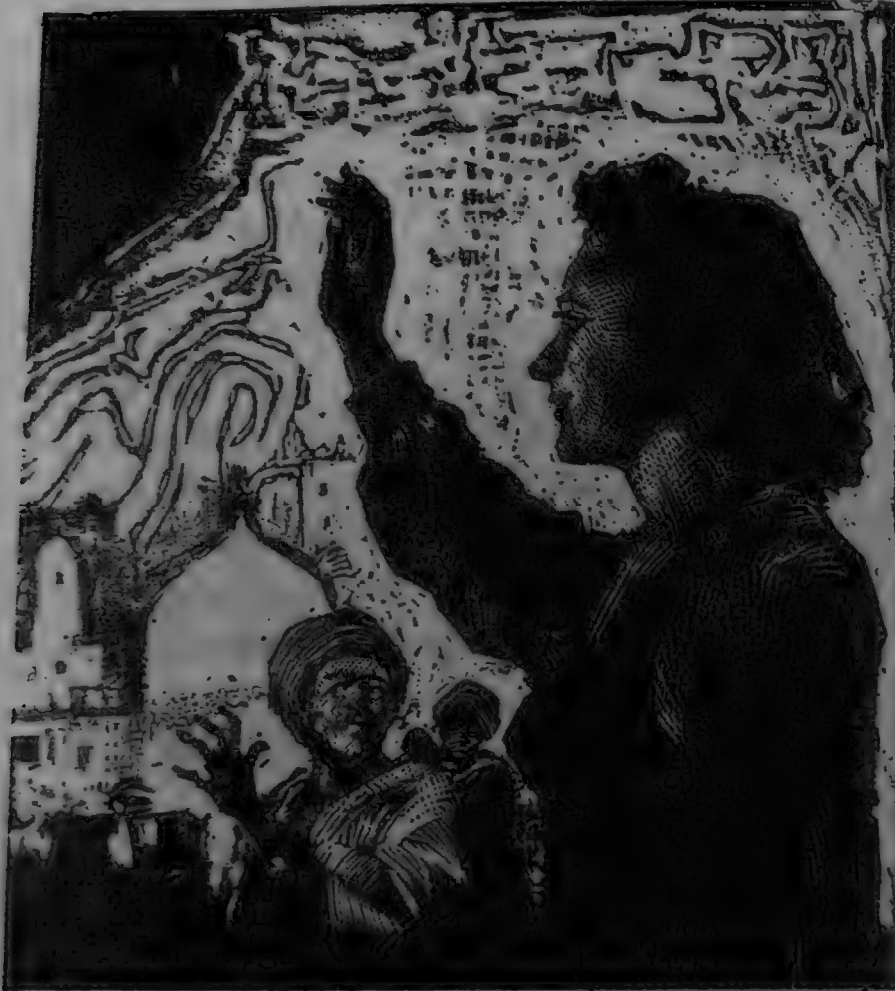
الفتاة :

— أين الخلق ؟

لأذ الرجال بالصمت فقال صوت من الشعب :

— الروح — تباركت — تتحدث عن جواهر حقيقية !

فقال الشرطي :



— للروح لغة لا يدركها أحد من البشر !
 — إنها تتحدث عن جواهر حقيقية .
 فعاد الشرطى يقول :
 — حذار أن تفسروا كلام الروح على هواكم .
 — اضربوهما حتى يقرأ !
 — إني مسئول عن الأمن العام .
 — اضربوهما حتى يقرأ .
 فقال الولي مرتعدا :
 — نحن رجال العهد .
 وقال خادم الضريح :
 — فتشونا إن شئتم .
 فصاح رجال من الشعب :
 — اضربوهما حتى يقرأ .
 وانهائت عليهما الحكامات كالمطر حتى صاح خدام الضريح :
 — اخلنى في حوزة الشرطى .
 — تحول الجمهور الغاضب نحو الشرطى فقام الرجل وهو يقول بعجلة
 وضوحه :

— لقد ضبطتهما وهما يتقاسمانها فوضعت يدي عليهما باسم القانون ..
 وبلا تردد تخلص الشرطى من الحلى فوضعها في الساحة أمام الضريح ، في
 مرجة هادرة من التكبير والتهاويل .
 وصاح الشاب :

— الآن وضع الحق !

فانقضت الأسمات ، وبدأ حتى استقر القمص فاستدارك الشاب قائلاً :
 — أرادت الروح أن تجرد بعض الجواهر على الفقراء فسرقها اللسان ولكم

ها هي الجواهر تعود إلى أصحابها !
 — الله أكبر .. الله أكبر ..
 — وتلك هي رسالة طيب القلوب اليكم ..
 — الله أكبر .. الله أكبر ..
 — تباركت يا طيب القلوب .
 — فلتوزع بالعدل ..
 — تباركت يا طيب القلوب .
 — ولتتفق في الخير .
 — تباركت يا طيب القلوب .
 وإذا برجل وجيه المظهر يجيء مهرولا . ينظر فيما حوله بذهول حتى تنع
 عيناه على الحلى فيندفع نحوها كالجنون هاتفا :
 — الحلى المسروقة !
 ولكن الشاب يدفعه دفعة قوية ترجعه القهقري . وصاح الوجيه :
 — هذه حلى ، وهي مثبتة بالوصف والعيار في محضر الشرطة ..
 فتعالت أصوات الشعب :
 — كذاب !
 — لص !
 — شريك المجرمين !
 فقال الوجيه :
 — لنذهب إلى قسم الشرطة .
 — اذهب إلى الجحيم .
 وفيما يضرب الوجيه كفا بكف يقع بصره على الفتاة . حدق فيها ذهولا
 وهتف :
 — أنت !

وهم بالانقراض عليها ولكن الشاب دفعه دفعة قوية كادت تطرحه أرضا .
 وصاح به الجمهور غاضبا :
 — تأدب في الخطاب يا وقع ..
 — أنت غير جدير بالثول بين يدي روح كريم ..
 وتساءل الوجيه في ذهول :
 — ماذا جرى للدنيا ؟!
 ولحق الشرطى فلاذ به قائلا :
 — أنا صاحب الحل ، اذهب بنا إلى القسم ..
 فهمس الشرطى في أذنه :
 — اصبر ، لا جدوى الآن من تحدى الجمهور ..
 ولكنها لصة صعلوكة !
 فانهاالت عليه الأكف .
 — اقطع لسانك يا وغد ..
 — يا مجدف ..
 — يا ليم ..
 وسأل الشاب الفتاة :
 — ما قرأت في هذا الوقع ؟
 فأجابت الفتاة بسرعة :
 — إنه حيوان يتعرج في تراب الفتيات ويضن عليهن بالملايم !
 فصاح الجمهور العاصب :
 — حيوان .. حيوان ..
 فقالت الفتاة :
 — أمواله حلال لكم !
 تعالى الليل والتكبير . هجم عليه رجال أشداء فطرحوه أرضا واستخرجوا

من جيوبه جميع نقوده . وصاح الوجيه :
 — أيها الشرطى !
 فهمس الشرطى :
 — ماذا يفعل الشرطى بين مجانين !
 — أموالى تنهب بحضرك !
 وصاح الشاب :
 — أمواله كالحلى هبة طيب القلوب للفقراء !
 فصاح الجمهور :
 — تبارك الروح الكريم !
 فقال الشاب :
 — تقاسموا المال بالعدل ..
 وأحاط الجمهور بالشاب وراحوا يتقاسمون النقود والحلى . وجعل الوجيه
 يهذى قائلا :
 — ماذا جرى للدنيا ؟
 وقال الشاب :
 — الآن تحققت رسالة طيب القلوب .
 وأشارت الفتاة إلى الوجيه والشرطى وخادم الضريح والولى وقالت :
 — قيدوهم ثم احبسوهم في الضريح !
 — هجم الجمهور على الرجال الأربعة فقيدهم ثم حملهم إلى داخل الضريح
 وأغلق الباب . وسلمت الفتاة المفتاح إلى الشاب قائلة :
 — أنت خادم الضريح ..
 ثم نظرت إلى الجموع وقالت :
 — اذهبوا بسلامة الله ..
 على رغمهم غادروا المكان فلم يبق معها إلا الشاب ، خادم الضريح الجديد .

تبادلا النظر ، من ناحيته بخشوع ومن ناحيتها بشوق .. سألته :
 — لم لم تأخذ من المال نصيبا ؟
 فقال الشاب بوجد وافتتان :
 — حسبي أن أكون خادما ضريحك ..
 — ماذا كنت تعمل قبل أن تفقد بصرك ؟
 — نشأت في الطريق حتى التقطني منه العجوز الطيب فعلمني صناعته وهي
 تحضير الأرواح العظرية !
 — كنت من قتيان الطريق ؟
 — أول عهدي بالحياة .
 — وكيف فقدت بصرك ؟
 — صدمتني سيارة عابرة !
 — ولكنه رد إليك فمبارك عليك ..
 — بفضل الله وفضلك ..
 تفكرت قليلا ثم قالت :
 — الأصوب أن ترجع إلى عملك الأول مع العجوز الطيب ..
 — بل أحب أن أبقى خادما لضريحك ..
 — أقول لك أرجع إلى عملك ..
 — أهو أمر ؟
 — نعم ..
 — سأرجع إلى عملي .
 — سأرسل لك بفساد من الطيف الذي نشأت فيه إذا رأيتها توهمت أنك
 تراهي ..
 — ما أجمل أن أرى منه رثك على الدوام ..
 — تزوج منها فهي هبتي إليك ..

— سمعا وطاعة ..
 — وأحسن معاملتها .
 — سمعا وطاعة ..
 — ولا تصدق قول الحاسدين فيها .
 — سمعا وطاعة ..
 — ولا تفارقها حتى تفارقك الحياة .
 — سمعا وطاعة ..
 — اذهب الآن بسلام ..
 — وددت أن أبقى كظلك ..
 — اذهب بسلام ..
 — أحنى الشاب رأسه في خضوع ثم فارق المكان أسيفا حزينا .
 وجدت نفسها وحيدة في الخلاء . تجلت الحيرة في عينيها .
 تساءلت :
 — ماذا جرى للعالم !
 وقطبت في غضب :
 — إما أنني مجنونة وإما أنهم مجانين !
 ثم في ذهول :
 — الجميع يركعون ، يهللون ويكبرون ، بإشارة من يدي يأتمرون .. ماذا
 جرى ؟
 وبغلة سمعت دفعا يصك باب الضريح من الداخل صكا . تولاهم الذعر
 فأطلقت للريح ساقها . انفتح الباب بقوة الدفع وانطلق منه الوجه والشرطي
 وخادم الضريح والولى . وجعل الوجه يقول في صخب غاضب للشرطي :
 — سأحملك مسئولية المهزلة كلها .
 ولكن الشرطي قال :

— صبرك ، لم يكن في الإمكان فعل شيء ، جن الناس وإذا جن الناس
تطاييرت هيبة الشرطى ، ولكن هيهات أن يفلت مجرم من يدي ..
— واللصة الصعلوكة أين ذهبت ؟
— اعتبرها في قبضة يدك ، إلى أعنى ما أقول ..
— وكيف أسترده مالى وحلى ؟
فقال خادم الضريح :
— لنلجأ إلى القسم :
ولكن الشرطى اعترض قائلا :
— كلا ، لتحقيق سراديب أحشاها !
فسأله الولي :
— ونعمل ؟
فأجاب الشرطى :
— لى وسائل الخاصة .
ولكن الوجيه قال :
— بل لدى فكرة لم قدر لها النجاح ردت إلى أموالى الضائعة !
— ما هى فكرتك ؟
— لنلجأ إلى الروح !
— الروح ؟
— الروح التى سلبت مالى هى التى تردده إلى !
— ولكن ذلك حلم !
— سعيد . تمثيل الرواية !
— نفس الرواية ؟
ولكن بممثلين من عندنا .

— والروح من أين تأتى بها ؟
— نفس الروح ، وإذا خرجت عن الموسم لها مزقناها أربا !

وفى صباح اليوم التالى طلع أول شعاع على الضريح وهو مغلق والولي جالس
أسفل بابه . وإذا بعجوز يسحب وراءه شابا ضريزا نحو الضريح . وجاء رجال
فاتخذوا مواقعهم فيما إلى الضريح . وغمز الولي بعينه فراحوا يتصايحون متظاهرين
بالدهشة .
— هل نشهد معجزة جديدة ؟
— أجل .. انها معجزة جديدة !
وترامت أصواتهم المرتفعة إلى أطراف المدينة فهرع إلى ساحة الضريح جموع
الأمس ملهوفين وعلى رأسهم الشاب . ولحق بهم الشرطى وخادم الضريح ،
وتطلعت الأبصار إلى الشاب الضريز . رأوه مسند الرأس إلى باب الضريح وهو
يهتف :
— يارب السماوات !
فسأله العجوز :
— مالك يا بنى ؟
فقال الشاب بانفعال شديد :
— أسمع صوتا يا أبى .
فسرت فى الجموع هممة سرعان ما انقلبت تهليلا وتكبيرا . وتظاهر خادم
الضريح بالقلق فنادى الشرطى بنبرة تحريض :
— أيها الشرطى !
ولكن الشرطى أجاب بإذعان :
— كفاى ما لقنت أمس من درس ، فلتكن مشيئة الله .
فهتفت الجموع هتاف النصر . وصاح الشاب الضريز :

— إنه يناديني !

فصاح الجمهور :

— الله أكبر .. الله أكبر ..

— إلى مرهف السمع ، إلى رهن الإشارة يا طبيب القلوب الكسيرة .

— تبارك الله القادر على كل شيء ..

— افتحوا الباب ، إنه يناديني ، افتحوا الباب ..

— دخل الشاب الضريع .

— وطريقه إلى قلب الضريح حتى اختفى عن الأنظار . وساد صمت .

— است عميق شامل . وتركزت الأرواح في الأعين المتطلعة . وإذا بصيحة ترامي

من الداخل وإذا بالشاب يظهر في الباب رافعا يديه إلى السماء وهو يهتف :

— أشهد الله أن بصرى قد رد التى !

— فهتف الناس بانجذاب :

— الله أكبر .. الله أكبر ..

— خلقت الدنيا من جديد ، بنورها وناسها ، فلتقبلنى خادما لضريحك

يا طبيب القلوب .

— تبارك الله القادر على كل شيء .

— المنة لله ، ما أحلى النور عقب الظلام .

— تبارك الروح الكريم ..

— وسأله رجل ممن يقفون في الصف الأول :

— ماذا وجدت في الداخل ؟

— رأيت الروح يرسف في الأغلال !

— فتسأل شاب الأمس بدهول :

— ماذا قېدها بعد أن أطلقها بيدي ؟

— قد أخبرت بما رأيت ..

وتتابعت الاستغاثات من الحناجر :

— أتم نعمتك يا طبيب القلوب .

— يا مفرج الكرب .

— يا ناصر الضعفاء والفقراء ..

وظهرت الفتاة في الباب كما ظهرت أمس ، ودوى المكان بالتهليل والتكبير ..

— ها هي الروح المباركة ..

— ترقبوا مزيدا من البركات ..

— طوبى للفقراء .

وتساءلت الفتاة :

— أين أنا ؟

— فاستبقت أصوات تحجب :

— في الأرض التى اخضرت بجودك .

— ماذا أرى ؟

— شعبك الشكور .

— فقالت بألم :

— كادت الأغلال تكتم أنفاسى !

— فارتفعت الأصوات غاضبة تتساءل :

— من المجرم الأثيم ؟ ..

— من الجانى الشرير ؟

— من عدو الأرواح ؟

— فقالت الفتاة وهى تلحظ المخدقين بها فى يأس :

— رماني في الأغلال صديق لا عدو ، وبحسن نية لا بسوء طوية !

— فانفجرت الأفواه ذهولا فعادت الفتاة تقول :

— ما أساء إلى إلا سوء الفهم والتأويل !

واصلت الأعين حلقتهما في ذهول وتساؤل في ليلتي :
 — طرحت لغزا فوقعت في حباله !
 — ليغفر الله لنا .
 — غاب عنكم أن الروح لا تتكلم بلغة الدنيا .
 — ليغفر الله لنا .
 — وأنها تهب الضياء الخالد لا المال الفاني .
 فصاح رجال الصف الأول :
 — ليغفر الله لنا .
 أما الآخرون فوجموا وأطرقوا :
 — وأنها جاءت لتطهر القلوب لا لتحض على النهب والسرقة !
 اندبحر الجمهور وغرق في صمت على حين صاح الآخرون :
 — ليغفر الله لنا .
 — هكذا وقعت في الضلال ونهيم المال الحلال !
 — ليغفر الله لنا .
 — ذلك ما أئادني إلى الأسر !
 — ليغفر الله لنا .
 — أطلقوا سراحي أيها الأحياء المخلصون !
 وبين التكبير والتهليل أخذ الرجال المحدثون بها يدسون أيديهم في جيوبهم
 ويرمون بالنقود تحت أقدامها على حين انكمش الجمهور منقبض القلب والصدر
 والأمل ، وأخذوا يبادلون النظرات كمن يفقون من حلم . واستبطأهم
 الآخرون فسأهم الشرطي محتجا :
 — أنفضون بالحرية على الروح الكريم ؟
 ولكن واحدا منهم لم ينبس أو يتحرك . وجعل شاب الأمل يعملق في الفتاة
 بذهول حتى صاح متأوها :

— ماذا رأى ؟
 فتطلعت إليه الأبصار فصاح بغضب موجه الخطاب إلى الفتاة :
 — شد ما تغير كل شيء ، ماذا أرى ؟ !
 التصقت به الأبصار وهو يعين النظر بمنون حتى صاح بتحد :
 — ما أنت بالروح الكريم !
 أشرقت أعين الجمهور بالأمل أما الشرطي فصرخ فيه :
 — كف عن التجديف يا مارق !
 ولكنه صاح باصرار :
 — ما أنت بالروح الكريم !
 انبعثت من صدور الجمهور موجة استجابة حارة لقوله صدقوه من أعماقهم
 المعذبة . تغيرت النظرة وتغير المنظور وتابعت الصيحات في غضب وثورة :
 — ما أنت بالروح الكريم .
 — أين صوت الأمس الحنون ؟
 — أين ذهبت رحمة السماء ؟
 — أين أخفتى البهاء والجلال ؟
 — انظروا إلى أسمالها البالية !
 — انظروا إلى الطين يعلو قدمها !
 — انظروا إلى التراب يغطي وجهها !
 وفجأة وثبت الفتاة مخترقة الحصار المحدث بها رامية بنفسها وسط الجمهور
 وهي تهتف :
 — النجدة !
 وصاح الشرطي :
 — ما هذا !
 فصاحت الفتاة :

— أنا بنت مسكينة لا روح ولا ملاك !.

فصاح الشرطى :

— أيتها الدجالة الويل لك ..

فصرخت الفتاة :

— هددوني بالقتل إن لم أتكلم على هواهم .

فارتفعت الأصوات بالغضب وتكورت القبضات في تشنج . وانقض رجال من المتآمرين على الفتاة ولكن الجمهور تصدى لهم فدارت بين الفريقين معركة حامية . معركة استعملت فيها الأيدي والأرجل والعصى والطوب والأسنان . وقاتل كل فريق بعناد وغضب . ورأى شاب الأمس الفتاة وهى تقاتل كرجل فخطر له أنها فتاته الموعودة فازداد قوة واستبسالا .

استمرت المعركة وهى تزداد عنفاً ووحشية ..

موقف وداع

أفاقا في وقت واحد . دبت فيهما حركة بطيئة كتقلصات اعترت زوايا الفم والجفون والأطراف . فتحا عينيهما . ندت عنهما آهة عميقة من التوجع . تقلبا على الجنين . رحقا على أربع مقدار ذراع . جلسا على الرمال . أجالا في الخلاء المحيط بهما نظرة ثقيلة نصف عمياء . تلاقت عيناها في نظرة عابرة لم تكد تكفى لكي يرى أحدهما الآخر .

— ما أنقل رأسي !

— ما أنقل رأسي !

— لا ريب أني أغادر مرضا طويلا .

— لا شك أني أبعث من موت .

— ياله من خلاء ميت .

— نعل في قبر ، أكذاك يبدو القبر من الداخل ؟!

وتلاقت عيناها مرة أخرى .

— من أنت ؟

— من أنت ؟

— إنك عار تماما كيوم ولدتك أمك .

— وأنت أيضا ، ألا تدرك ذلك ؟

— باللعجب ، أين ملابسي ؟

— أين ملابسنا ؟

— من أنت ؟

— من أنت ؟

— اسمي عبد الواحد .

— اسمي عبد القوي .

— ترى اسمعت هذا الاسم من قبل ؟

— محتمل أنني سمعت اسمك كذلك .

— ماذا جاء بك إلى هنا ؟

— ماذا جاء بك إلى هنا ؟

— في الذاكرة تلف وعناء .

— في الذاكرة تلف وعناء .

— واضح أننا تعرضنا معا لشر واحد .

— أجل .

— غير بعيد أنني لا أراك لأول مرة .

— ويخيل إلى أنني عرفت في حياتي شخصا يقاربك في الشبه .

نهضا معا بصعوبة . وقفا يترنحان . أخذا يتنفسان بعمق .

— ما الذي جمع بيننا ؟

— لا يمكن أن توجد هكذا معا مصادفة .

— ثمة علاقة تربط بيننا ، فما هي ؟

— ما هي ؟

— ستتخلص من الإعياء والجور وتذكر كل شيء .

— من خبرتي السابقة أوكد لك أن رأسينا تعرضا لضرب مركز .

— ضربنا لنسرق وقد سرقنا بالفعل كما ترى .

— ومن خبرتي أيضا أوكد لك أننا تعاطينا مخدرا جهنميا .

— ولكنني لا أعاطي أي مخدر .

— لعله دس إلينا في غفلة منا !

— لعله ، ولكننا سنعود إلى وعينا .

— استظلي يا ذاكرة ، حقاً إن الإنسان لا ذاكرة هو لا شيء !

— ها أنت تنبه إلى أننا من فصيلة الإنسان .

— لا يتعري إلا الإنسان أما الحيوان فيخلق بملايس طبيعية .
 — من حسن الحظ أن تكون إنسانا ولو سرق وتعتريت وتأملت .
 — علينا أن نقاوم الذهول وإلا ذبنا في الخلاء .
 — وهو خلاء صامت لن يجيب بحرف لو سئل ألف سؤال .
 — صدقت .
 — الحق أن وجهك غير غريب ، ولا صوتك .
 — كذلك وجهك وصوتك .
 — نحن نتقدم بلا شك .
 — الذكريات تقبل حتى أكاد أمسك بها ولكنها سرعان ما تدبر ..
 — اشحن جهاز استقبالك .
 — صه .. ها هي ذكرى ، كأنها عواء ! ، وثمة ظلام كأنما يتكدس في كهف !
 — حقا ! .. وإني أكاد أمسك بأرقام محددة .. ترى ما هي ؟
 — وثمة إيقاع شيطاني ، لعله زار ، أتعرف الزار ؟
 — كلا ولكن هناك خطة .. خطة هامة !
 — وفرق بينهما صمت .. مضى كل منهما يحرك رأسه بشدة .. ويتنفس بعمق .
 — ثم تبادل نظرة حية لأول مرة .
 — ارتسمت في وجهيهما الدهشة .
 — رباه !
 — عبد القوى !
 — عبد الواحد !
 — ماذا حدث لنا أيها الأخ ؟
 — أجل ماذا حدث ؟
 — وساد الصمت مرة أخرى تحت شمس الحريف الدافئة حتى تمت عبد الواحد :

— كنا ماضيين نحو الطريق الزراعي .
 — أجل رأيناه بالعين على ضوء النجوم ..
 — ثم ؟
 — ثم انقض علينا قطاع الطرق ، لا شك عندي في ذلك .
 — وسرعان ما غيبنا عن الوجود .
 — آه ، تذكرت ، كنا قادمين من نجيم البدوى .
 — ذلك الرجل الكريم الذي استضافنا في الواحة .
 — الواحة ! .. أجل الواحة .. وقد قضينا وقتا طيبا في الخيمة .. وتعاطينا ..
 — فقاطعه عبد الواحد بحدة :
 — إنك أنت أصل المصائب !
 — كلما هفت نفسك إلى لذة مسحت ضعفك في أنا !
 — أنت الذي شجعته !
 — لم اشتركت أنت معنا ؟
 — ضقت بالعزلة ..
 — هي خجلك إذا أردت أن تمنح ضعفك في ..
 — وقد وصلنا البدوى حتى مشارف الطريق ..
 — وعقب رجوعه بوقت غير قصير وقع لنا ما وقع .
 — وحملنا المعتدون إلى هذا الخلاء ثم تركونا عرايا !
 — وجعل كل منهما يقطب متذكرا حتى قال عبد الواحد :
 — سرقوا ملابسنا بما فيها ..
 — نقودنا وأوراقنا الخاصة ..
 — تركونا بلا شيء في لا شيء .
 — فنحن وما حولنا لا شيء .
 — هراء ما تقول ! ..

- ولكنك أنت من قلته !
- إني لا أتكلم ولكني أفكر والتفكير طرح فروض واحتمالات ..
- معذرة يا أخى ، ولتفكر في هدوء ..
- ويجب أن تفكر أنت أيضا .
- إنما اعتمدى — بعد الله — على إحساسى الباطنى وحده .
- ماذا يقول لك إحساسك الباطنى ؟
- إنها ستفرج من حيث لا ندرى !
- ربما هلكنا قبل ذلك .
- فرفع عبد القوى كتفيه العاريين في صمت واستسلام فقال عبد الواحد :
- لقد سلبونا جميع ما نملك إلا العقل .
- وهو ما زال في شبه غيبوبة .
- أجل ولكن من اليسير أن ندرك أن علينا أن نذهب إلى أقرب نقطة شرطة .
- فكرة صائبة ، هيا بنا ..
- لا تتعجل . أنسيت أننا عرايا يستحيل عليهم مواجهة الناس !؟
- ولكنك أنت الذى اقترحت ذلك .
- قلت لك إني أفكر وإن التفكير ما هو إلا طرح فروض واحتمالات !
- معذرة ..
- وإذن فعلينا قبل ذلك أن نعصل على ملابس .
- فكرة صائبة ولكن كيف ؟
- أن نعود مثلا إلى صاحبنا البدوى .
- أسرع ، لنسرع أيها الأخ ..
- ولكننا في غلاء مجهول لا ندرى شيئا عن موقعة ولا بوصلة معنا ولا
- مرشد .
- لم يبق إلا أن ننظر حتى يعبر أحد فنهبه كما نهبنا .

- وأى جنون يعبر هذه المتاهة ؟
- يا لها من ورطة مضحكة !
- مضحكة !؟
- المآزق تبعث في نفسى الضحك .
- ذاك أنك أهوج ملهوج لا يركن إليه في أزمة .
- أنسيت موافقى في نجدتك عند الخطر ؟
- لا يمكن أن ينسى ذلك ولكن لا تضحك في المآزق !
- أجنى عبد القوى رأسه مستجيبا أو متظاهرا بالاستجابة فواصل عبد الواحد كلامه قائلا :
- اتفق الرأى على أننا نزلنا ضيفين في خيمة البدوى ولكن ما الذى دفع بنا إلى
- الواحة ؟
- ولكنك لم تحمل مشكلة وجودنا في الخلاء عرايا بعد ؟
- يقتضى حلها بالرجوع إلى الورا قليلًا فنحن لم نستكمل الوعى بنفسنا
- وحالنا بعد .
- فليت ذلك قبل أن نهلك في الخلاء .
- لا تبدد الوقت ، ماذا جاء بنا إلى الواحة ؟.. لا أظننا من أهل الواحات !
- الثابت أننا من أهل الأرض .
- أين كنا قبل أن نذهب إلى الواحة ؟.. ولم ذهبنا إلى الواحة ؟
- فضرب عبد القوى جبهته بكفه وصاح :
- شد ما كانت جيوبى مملأ بالنقود !
- ولكننا لا يمكن أن نعد من الأغنياء بحال !
- صه ، ها هي ذكرى تقع في قبضتى ، الاستراحة !.. ألا تذكر
- الاستراحة !؟
- الاستراحة !.. أجل .. الاستراحة والحديقة وبركة البط .

— برافو .. والركن القصي حيث قبعتم مجموعة من الأفندية ؟

— أجل .. كانوا يلعبون الورق ..

— وجعلت أنا أتابع اللعب من بعيد .

— وحذرتك من ذلك .

— ولكني لا أملك أن أرى اللعب دون أن أتفرج .

— قلت لك ابتعد .

— وإذا بأحدهم يسألني بركة « أترى أن تنضم إلينا ؟ »

— وهنسيت في أذنك أنهم زملاء وقد يتضامنون عليك ..

— والخطر لا يخيفني بقدر ما يستفزني للتحدي ..

— سجيبة مفيدة في مجالها مضرة فيما عدا ذلك .

— ولكنك أنت نفسك لحقت بي في اللعب !

— عندما طالت بي الوحدة !

— كلا .. عندما ثبت لديك أن اللعب نظيف وأنني أربح باستمرار !

— ليس إلا أنني أكره الوحدة !

— وسرعان ما انهمكت في اللعب ..

— وقد رجحت أنت مالا طائلا ..

— ثروة !.. أخذتها من أصحابها لأهبها لقطاع الطرق ..

— وأعقب ذلك معركة !

— ربما أحدهم نهمه باطله فلكنه !

— ولكنها اتسعت واضطرت إلى المشاركة دفاعا عنك ونلت نصيبي من

الضرب الأليم ..

— ولكننا انصرفت إلى الضرب كما انصرفت إلى اللعب ..

— وبعد أن ورطنا فيما لا يليق !

السمع عبد القوى بالخطوات من الأرياح على حين قضى عبد الواحد بفكر

حتى رجع يتساءل :

— ولكن ماذا دفع بنا إلى الاستراحة ؟

أفاق عبد الواحد من لحظاته السعيدة فحدجته بنظرة بلهاء . وتساءل عبد الواحد :

— أين كنا قبل أن ننزل بالاستراحة ؟

— الاستراحة .. الواحة .. مؤكدا كنا نقوم برحلة .

— من أين وإلى أين ؟ .. أعمل ذاكرتك الفضة .

— ولكنها ما زالت في قبضة الخدر وعلقة قطاع الطرق !

— تغلب على ضعفك الطاريء فأنت رجل مخلوق للشدائد .

راح عبد القوى يعصر ذاكرته مليا ثم قال :

— أذكر أنني رفعت بين يدي رجلا يرتدى جبة وققطانا وطرحته أرضا !

— ولكن خصومنا في الاستراحة كانوا أفندية !

— أكان أحد قطاع الطرق ؟

— ولكننا لم ندخل معركة معهم فقد غدروا بنا بغتة فغبتنا عن الوجود .

— وإذا بعبد القوى يصيح متهللا :

— كان الرجل صاحب الراقصة !

— الراقصة !؟

— ملهى الزهرة .. ملهى الزهرة بالمدينة .. كنا في المدينة قبل أن نمضي إلى

الاستراحة !

— عفارم عليك .. كنا حقا في المدينة .

— قضينا ليلة عجيبة ..

— الله يكسفك !

— حياك الله يا ملهى الزهرة !

— أنت الذي قدمته إلي ..

— ينبغي أن أستحق شكرك .
 — وشربت ، وشربنا ، ولكنك جاوزت الحد .
 — وكانت الراقصة تضيء كالألؤلؤة ..
 — ورغم تحذيري لك فإن النهم تجلى في عينيك كوحش ضار ..
 — كنت تحذرنى يا أخ وتسترق إليها النظر .
 — الإعجاب بالجمال في ذاته من ضمن أشواق العقل !
 — لذلك لم أنسك في مغامراتي الباهرة فساومتها على ليلة كاملة لرجلين معا !
 — أخزأك الله !
 — ولم تمنع الفاتنة ..
 — مؤامرة حيوانية .
 — ولكنها ضمنت لكلينا ليلة ساحرة .
 — ثم اعترضتنا متاعب غير متوقعة ومخجلة ..
 — كان ثمة عشاق قدامى لها اعتبروا مغامرتنا اعتداء صارخا على رجولتهم ..
 — وهكذا خضنا في طريقنا إلى بيتها معركة حامية ..
 — وانتصرنا انتصارا حاسما .
 — وكدنا نقع في قبضة الشرطة ..
 — ولكن الله سلم وقضينا ليلة حمراء مترعة بمجنون اللذة ..
 — وهانحن عرايا في خللاء ميت !
 — ولكن الليلة الحمراء لا يمكن أن تنسى ..
 — لولا حماقتك ما وقعنا في هذا المأزق .
 — حماقتي قادتنا من لذة إلى لذة ، ومن نصر إلى نصر ..
 — حينئذ لم نألف بالخطأ ما نألف ، أنها العبد المكابر ، أتذكر كم من مرة
 قلت لك إن العبد قد يحول بيننا وبين إنجاز مهمتنا .
 وسرعان ما تبادلا نظرة حادة مترعجة ! وهتف عبد القوى :

— ماذا قلت ؟ .. أعد ما قلت مرة أخرى ؟
 فقال عبد الواحد بذهول :
 — يحول بيننا وبين إنجاز مهمتنا !
 — إذن فهناك مهمة تتطلب الإنجاز ؟
 — صبرك .. دعنى أتذكر بهدوء ..
 — بهقوة لسان تذكرت أخطر شيء في رحلتنا ..
 — مهمة .. أى مهمة ؟ .. دعنى أتذكر .
 — لا شك أننا كنا في العاصمة قبل أن نتقل إلى المدينة .
 — أجل .. لا شك في ذلك .
 — وها أنا أتذكر آخر ليلة لنا فيها ، كنا في زيارة للكهف الذى أقام فيه
 الوجوديون معرضهم التشكيلي !
 — صدقت أيها الأخ عبد القوى .
 — وقابلنا هناك الزميل نوح فأمرنا همسا بأن نذهب من قورنا إلى مستشفى
 الولادة لمقابلة الدكتور المولد رئيس وحدتنا السرية ومنسوب الزعيم .
 — وذهبنا إلى المستشفى فانتظرناه في خجرتة حتى يفرغ من توليد امرأة ..
 — وجاءنا فتحدث معنا عن رحلتنا .
 — أمرنا أن نسافر إلى الجنوب ، ولكن لم نلحظ أن نذهب أولاً إلى المدينة
 — رسم للسفر خطة معقدة ، فكان علينا أن نذهب أولاً إلى المدينة
 فلاستراحة ثم الواحة قبل أن نمضى إلى الجنوب .
 — أجل وحدد لكل مكان وقتاً ومدة إقامة ، ولكن ماذا كانت المهمة ؟
 — أن لنا أن نتذكر أخطر ما في رحلتنا .
 — أذكر أنه انتحى بك جانباً مقدار خمس دقائق فلم أسمع ما دار بينكما .
 — ألم أحدثك عن المهمة عقب مغادرتنا المستشفى ؟
 — كلا ، مؤكداً أننى لم أعرف شيئاً عن المهمة ، ولكنك ..

ولكنني ؟
ولكنك قلت لي ونحن في الطريق نصف المظلم أننا سنعرف المهمة عندما
نصل ..
ذاك يؤكد أنني لم أكن أعرفها وقتذاك ..
وهنا صاح عبد القوى متلهلا :
قلت إنها في جيبيك ، إنه سليمك مظلوما مغلقا لا يجوز فضه قبل الوصول .
أحسنست التذكر ..
وضرب يده على موضع الجيب فأصاب لحم فخذ الضامرة فصاح بحسرة :
لنداهية السوداء ، لقد سرق المظروف فيما سرق من أموالنا !
يا نلكارثة !
إنك أنت المسئول عما حاق بنا .
لا تسبح و ضعفك .
عترف بجنونك .
في راض عن نفسي فاعترف أنت بضعفك ..
وتبادلا نظرة نارية . تلاقى فيها الغضب بالتحدي ، ولكن عبد الواحد انتزع
عبيده يائسا ، رمى بعبده إلى الحلاء ، ثم تنهد قائلا :
نهاية خليقة بالخيبرات !
فقال عبد القوى :
لا تسبح و ضعفك مرة أخرى ، علينا أن نتخلص من ورطتنا !
م يئس عبد الواحد فعاد عبد القوى يقول :
سبحت من العمران ، وسحبيل بوسيلة ما غما يسترنا ، ولترجع بعد
ذلك إلى الدكتور :
فقال عبد القوى :
حتى إذا علم بالعداء فقل الطريق علينا ؟

له قدرة مخارقة على أن يقررنا حتى نقر بما يديننا !
ولم لم يقض إليك بالمهمة من بادئ الأمر ؟
إنه أدري بما ينبغي أن يتبع .
ولكننا نحن الذين نقوم بالمغامرة ومن حقنا أن نعرف .
لقد دخلنا التنظيم باختيارنا وقبلنا لائحته دون شرط ، فما وجه اعتراضك
الآن ؟
كان علينا أن نرفض أن نكون مجرد آلات .
بالتنظيم كذلك أناس لا عمل لهم إلا التفكير والتدبير .
ولم يختصون هم بالتدبير ونختص نحن بالتنفيذ الأعمى ؟
لا يستقيم التنظيم إلا بتوزيع دقيق للعمل .
ومتى ثبت لهم أننا دونهم في التفكير والتدبير ؟
يبدأ العضو عادة بعمل تنفيذي ثم يتدرج في مدارج الرقي .
كلام جميل أما الواقع فهو أنهم يستأثرون بالعلو والأمان وتعرض نحن كل
ساعة للموت ، وتمر الأيام ونحن نغني النفس بترقية لا تريد أن تتحقق أبدا !
الحق أنه لا هم لك في دنياك إلا التمرد وانتهاج اللذات !
فرفع عبد القوى كتفيه العاريتين امتعاضا وأطبق فاه ، فقال عبد الواحد :
شدد ما يغضبك قول الحق !
فتساءل عبد القوى ساخرًا :
خبرني عن تفكيرك ماذا أفادنا ؟
فتساءل عبد الواحد بالسخرية نفسها :
خدشني عن إحسانك الباطني ماذا أفادنا ؟
ففتح عبد القوى معبطا وقال منشكيا :
أنا لست أنبحث عن طريق للخلاص .
حسن ، السأل أنفسنا ماذا نريد ، وعلينا أن نجيب على ذلك بوضوح .

— نريد العمران ، الملابس ، المظروف الضائع ، مواضلة الرحلة ..
— قد نهتدي إلى العمران ، وقد نجد ما نغطي به جسدنا ، ولكن كيف يمكن
العثور على المظروف ؟

— نلجأ إلى نقطة الشرطة !

— لقد أنهكت الضياع فنسيت أن رجال الشرطة هم أعداؤنا !

فتفكر عبيد القوى مليا في حيرة بالغة ثم قال :

— أصبحنا مطاردين من الشرطة والتنظيم معا فلم يبق أمامنا إلا سبيل واحد !

— وهو ؟

— الحرب ؟

— الحرب !

— أجل .. الحرب ..

— وكيف نحيا ؟

— لنا خبرتنا في الحياة ، وما أكثر الذين يعيشون خارج نطاق التنظيم ؟

— ولكن كيف ؟

— لنبدأ من جديد ، لنسول أو نقامر أو نسرق ، وهناك تجارة الرقيق
الأبيض !

— أتتصور أنني أرضى بشيء من ذلك بعد أن اخترت عضوا في التنظيم ،
وبعد أن كلفت بمهمة لا يكلف بها إلا الأكفأ ؟

— عيبك الأساسي هو الغرور ، اعترف بأننا خسرنا اللعبة ، ومن حقنا أن
نتعلق بأذيال الحياة بأي ثمن ..

فقال عبيد الواحد بإباء :

— أرفض أن أتعلق بأذيال الحياة بأي ثمن ..

— ولكن الحياة تستحوذ ذلك ..

— لعل أفضل الانتحار ..

— أي شيء أفضل من الانتحار .

— ليس أي شيء !

— لنكن عمليين !

— لنكن عمليين ولنفكر في وسيلة لإصلاح الخطأ وإنجاز المهمة .

— بضاياع المظروف ضاع الأمل في ذلك .

— لا تتسرع في الحكم .

— حدثني عن سبيل لمعرفة المهمة ..

— فلنستعن بالعقل .

— سل عقلك عن سر مدفون في مظروف مفقود !

— إنك لا تحترم العقل ، وذلك هو سر تعاستك .

— ولكنني لست تعيسا .

— ومن أي تعاستك أنك لا تعرف أنك تعيس .

— إني مسلم بمقدرتك في الجدل ، وبسخريتك مني إذا خلا لك ذلك ،

ولكن من الخير أن توجه قوتك المزعومة إلى حل اللغز الذي تتوقف عليه حياتنا ..

— كأنك عاجز على الوقوف من موقف المشاهد أو الشامت ؟

— اقترحت عليك ما أرى وهو الحرب .

— لنمارس حياة وضيفة في ظل المطاردة ؟ !

— ستكون مطاردين على الحالين !

— مطاردة الشرطة لنا شرف لم نستحقه إلا بالعرق أما مطاردة التنظيم فهي

اللعنة الكبرى !

— لست راضيا عن دوري الآلى فيه .

— ولكنك دخلته مختارا ؟

— بل لأنك دخلته ولأني لم أعتد الحياة بعيدا عنك !

— وإذا فعلينا أن نتقبل مصيرنا بالصبر والشجاعة .

فقال عبد القوى متنهدا :

— ليكن .. حدثني الآن كيف نعرف المهمة ؟

— كن معي بكل حواسك ، لقد أمرنا بأن ننزل في المدينة فلاستراحة ثم الواحة في طريقنا إلى الجنوب حيث نفرض غلاف المظروف .

— أجل ، والحق أني لم أدرك وجه الحكمة فيه ، وقد نفذنا الشطر الأكبر منه بكل دقة ودون جنى أى ثمرة إلا ما حاق بنا من خسران !

— لا تنس أننا ضيعنا وقتنا في العريضة والعراك .

— هو خير عندي من المكوث بلا عمل أو تسلية .

— فاتتنا أشياء وأشياء لم نقطن لها في حينها !

— ما كان قد كان ، انتهينا إلى ما نحن فيه ، فما العمل ؟

— لنسأل أنفسنا ما المهمة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه في الجنوب ؟ فضحك عبد القوى وأجاب :

— قد يقتل أو يشهد حفل كوكتيل !

— إنك لا تساعدني ألبتة !

— معذرة ، الأفضل أن ننسلل إلى رئيس وحدتنا لنحاول الاتفاق معه .

— الاتفاق معه ؟

— أن يعطينا مظروفا جديدا بثمن معقول يمكن دفعه ولو بأقساط .

— إنه رجل أمين ، وفضلا عن ذلك فالراجح أنه لا يدري شيئا عما في المظروف .

— لا يدري شيئا عما في المظروف ؟

— كلا .

— يا لها من مهترلة ..

— إنه تنظيم ضخم ويحسن توزيع العمل بين أعضائه ..

فقال عبد القوى بنفاد صبر :

— لنرجع إلى السؤال المطروح ، ما المهمة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد

نفسه في الجنوب ؟

— بالاستقرار والقياس تتضح الأمور فنعرف ما يجب عمله .

— ما المهمة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه ، في الجنوب ؟

— لا أملك إجابات جاهزة ولكننا نملك خلق الفروض وتجربتها ..

— كما يترأى لنا ؟

— كما يترأى لعقولنا !

— نفكر ونتعب ، نقترح الفروض ، نجرب كل فرض ، نرتطم بالخطأ ،

نعاود التفكير والتعب ، نقترح فروضا جديدة ، وطيلة الوقت تلفت فيما حولنا

بحدس ، أن يقبض علينا رجال الشرطة أو يقتلنا رجال التنظيم ، وعاجلا أو آجلا

سنقع في المصيدة ..

— إنك مشط للهمم ، ولكن حتى لو وقعنا في المصيدة فسنكون قد أثبتنا

حسن نيتنا ، وربما نوفق إلى نجاح فذ . يغطي على أخطائنا ..

— عظيم .. عظيم .

— ولكني أراك غير متحمس في الواقع !

— معاذ الله ..

— وشارد النظر ، سرحت بفكرك بعيدا ، فم كنت تفكر ؟

— أتريد الحق ؟

— نعم .

— تذكرت كيف هوشت المقامرين في الاستراحة فربحت في دور عشرة

جنهات بجوز عشرة !

فقطب عبد الواحد في استياء وقال :

— يا لك من مستهتر !

— وعندما جندلت اثنين في معركة الراقصة بلكمة واحدة مستغرضة !

— إنك تمل بذكريات عفتة ..

فقال عبد القوى بحماس :

— أصغ إلى ، إنها ذكريات جميلة ، لا أدل على ذلك من أنك شاركت فيها

جميعا معتلا بشتى العلل ، لا تنكر ذلك ، أصغ إلى ، هلم نهرب ، دعنا من خلق

فروض خيالية في الجنوب ، دعنا من تعب غير مجد ألبنة ، نحن مطاردون ،

وسنظل مطاردين ، وخير لنا أن نهب حياتنا للمغامرات الشائقة .

— لا تستسلم لتيار خيالك الجامح ، اسبح ضده بقوة ، وهلم نبحث عن

العمران ..

فضرب عبد القوى الأرض بقدمه في عناد وقال :

— كلا .

— ثق من أننا سنعرف المهمة .

— كلا !

— إني أطالبك بالسير معي ..

— كلا .

— معنى ذلك أننا ستفترق .

— لنفترق .

— ولكنك قلت إننا اعتدنا الحياة معا .

— منذ نشأتنا الأولى !

— لم تجرب الحياة وحدك .

— ولا أنت .

— إذن يجب أن نحافظ على وحدتنا .

— تعال معي .

— بل عليك أنت أن تأتي معي .

— إني أرفض وسابتك كما رفضت وصاية التنظيم .

— لقد انقطع ما بيننا وبين التنظيم ، ولئن زالت عنا ولايته فقد وهبنا الحرية ،

ولكنها ليست الحرية التي كانت لنا قبل أن ننضم إليه ، إنها حرية جديدة غير

عابثة ، وليست وصاية منى عليك ..

— إنك تحسن الجدل ولكني مصر على الرفض !

— لا يجوز أن نفترق ..

— لا يجوز أن نفترق ..

— هلم معي ..

— هلم معي أنت ..

— ليتقدم كل منا خطوة من جانبه ، عندي اقتراح للتوفيق .

— ما هو ؟

— ليكن لكل منا اختصاصه وليعمل في دائرته ولكن تحت شرط !

— وهو ؟

— أن تسلم بالمهمة ، لا تهرب منها ولا تنكرها ، فبدونها تضحي الحياة

لا شيء ..

— ولكن المظروف سرق ؟

— لا يهم ، إن فقدته يعني الانفصال عن التنظيم ، لا إهمال المهمة أو الكفر

بها ، بل لعل الإيمان بالمهمة هو الذي دفعنا إلى الانضمام إلى التنظيم وليس

العكس ..

— بوسعتك دائما أن توقع عقلي أسيرا لمنطقك ولكن كلماتك لا تنفذ إلى

باطني ..

— اقترحي يبدو لأول وهلة خارقا للمألوف ، من أين لنا أن نعرف المهمة ؟ ،

ولكن من الأصل في اقتراح المهمة أليس هو الزعيم المجهول ؟ ، حسن ، وأليس هو

يقترح المهمة بعقلة ؟ ، حسن ، فلم تتصور أن عقله فوق جميع العقول ؟ ، بل

حتى مع التسليم بتفوقه فهل يعني هذا التسليم بمعجز عقولنا ؟ ، فإذا انقطعت الصلة

(شهر العمل)

بيننا وبينه فما علينا إلا أن نفكر ، ثم إن الصلة بيننا وبينه مقطوعة في الواقع من بادىء الأمر فنحن لا نعرف إلا مندوبه الذى يرأس وحدتنا ، ولا علم لنا عن مدى صلة المندوب به ، ولا يبعد أنه يترك للمندوبين مهمة اقتراح المهمة ..

— ها أنت تشكك في القيادات العليا نفسها !

— أنا لا يهمنى إلا المهمة ، فيها أكتسب وظيفتى في الحياة وبغيرها لا يبقى لى إلا العدم ، ولقد اعتدنا أن نسلم بالمهمة على ثقتنا بالزعيم ، ولكن ليس ثمة فارق كبير أن تقوم بالمهمة لذاتها وبين أن تقوم بها لحساب زعيم مجهول ..

— هل البدء بالمهمة يعنى الانتهاء إلى الزعيم ؟

— كل شيء محتمل ، قد يؤهلنا النجاح لو وظيفة المندوب فتتصل بالزعيم ، وقد يتضح لنا أن المندوبين أنفسهم لا يتصلون بالزعيم كما يدعون ، وقد ثبت لنا أن لتنظيم يدار بطريقة جديدة لم تجر لأحد على بال ..

— وإذا تبين لنا أن إنجاز المهمة قد يكلفنا حياتنا ؟

— ألم يكن من الجائز أن نفقدها في بيت الراقصة ؟

— أن أموت بين يدي راقصة أفضل من أن أموت وراءك !

— علينا أن نختر على ضوء احترامنا لأنفسنا ..

— بكل صراحة أنا لا يهمنى الاحترام ..

— بل إنك تشعل معركة لأقل إهانة توجه لذاتك !

— لا علاقة لذلك بالاحترام الذى تطالبني به ..

— لقد أصبحنا وحدنا فإما أن نختر العمل كأعضاء محترمين رغم زوال صفة

العضوية الرسمية عنا وإما أن نرضى بحياة الصعلكة ..

— إنى أعشق حياة الصعلكة !

— يا أنت من عجبون !

— لك من رجل متعب !

— يا المحزون .. إن الانفصال يهدد وحدتنا الرائعة ..

— إنه لأمر محزن حقا .

— انفصلنا عنه ، ونفصل عن بعضنا البعض ، سلسلة من الانفصالات لا

أدري أين تقف ..

— لاذا بالصمت وهما يتبادلان نظرة طويلة . وهم عبد الواحد بالكلام ، فتح فاه ولكنه سرعان ما أطبقه . ورفع رأسه نحو السماء في دهشة . ورفع عبد القوى رأسه كذلك وهو يتمتم :

— صوت طائرة !

— أجل .

— ولكن أين هي ؟

— أشار عبد الواحد إلى الأفق قائلا :

— هيلكتر !

— جعلنا ينظران إليها وهي تقترب وتتضح في سميت السماء . وقال عبد القوى :

— هلم نلوح بأيدينا لعلهم يروننا ..

— لوح .. ولكنهم لا ينظرون إلينا ..

— فصاح عبد القوى :

— انظر .. إنها تهبط !

— هبطت بتؤدة كأنما تمضى إلى هدف محدد حتى استقرت فوق الأرض غير

بعيد منهما وهما يتطلعان إليها بذهول . وتساءل عبد القوى :

— هل هبطت من أجلانا ؟

— لعلها مناورة لا علاقة لها بنا ..

— أو أنها ..

— ولكنه انقطع عن الكلام عندما انفتح بابها ، وتدفى السلم نحو الأرض . ولاح

في الباب رجل نمل حقيمة متوسطة الحجم سرعان ما أخذ في النزول . ضيق عبد

الواحد عينيه ليحد بصره ثم هتف :

— زميلنا نوح !

— أجل .. هو الزميل نوح ..

مضيا نحوه فتلاقوا في منتصف المسافة . تهلل وجهاهما بالفرح ولكنه قابلهما بوجه جامد لا يفصح عن أى تعبير إنسانى ، فباخا وهما يصفافحانه ، و صافحهما بألية صماء . ودون أن ينبس بكلمة فتح الحقيقة وأخرج لكل طاقم ملابس متكاملة . ارتديا الملابس الداخلية والخارجية في فتور وقلق . ولما فرغا نظرا إليه في استطلاع فأشار صوب الطائرة وقال :

— الطائرة تحت تصرفكما إذا رغبتما في العودة ..

وساد الصمت قليلا حتى تساءل عبد الواحد :

— كيف عرفتم بمكاننا أيها الزميل .

ولكنه لم يجب فعاد عبد الواحد يقول :

— لعلهم أرسلوا وراءنا عيوننا ؟

لم يبد عليه أنه سمعه ، فقال عبد الواحد بإصرار :

— أرجو أن يكون رجالنا قد استردوا المظروف المسروق !

فتأبر على صمته دون مبالاة فقال عبد القوى باسمه :

— بحسن نية أيها الزميل ارتكبنا بعض الأخطاء ، ودون تقدير للعواقب !

كأنه أصم لم يستجب ولكن عبد القوى لم ييأس فسأله :

— هل نجد محاكمة عادلة ورحيمة ونمنح فرصة جديدة للعمل ؟

قام الصمت كحداد سجن . ولما لم يخالوا الكلام مرة أخرى قال نوح وهو يتناول الحقيقة الفارغة :

— سأنتظر في الطائرة ثلاث ساعة ثم أرجع من حيث أتيت .

ورجع كما جاء فرقى في السلم حتى اختفى داخل الطائرة . تبادلوا نظرة حائرة

ثم تساءل عبد القوى :

— ما له يعاملنا كأنه غريب أو عدو ؟

— إنه ينفذ ما أمر به .

— ماذا تظنهم فاعلين بنا ؟

— سنقدم إلى محاكمة عاجلة .

— وما العقوبة المتوقعة ؟

— العقوبات تتراوح بين الإعدام والخضوع من المرتب .

— لو كنا نستحق الإعدام في نظرهم لأمرؤه بقتلنا في هذه المتاهة !

— لا تعتمد على المنطق في فهم نواياهم .

— ستوقع علينا عقوبة ما ثم نمنح فرصة جديدة للعمل ، هذا هو إحساسى !

— أترى أن نعود معه ؟

— إنه المخرج الوحيد من حيرتنا إلا ..

— إلا ؟

— إلا إذا وافقتنى على الحرب !

فنفخ عبد الواحد في ضيق وقال :

— لا تعد إلى ذلك .

— إذن فلا مفر من العودة .

— ألم تنمرد منذ حين قليل على الوضع الذى يجعل منا آلات صماء ؟!

— ولكنك تكره فكرة الحرب وتترح — بدلا من التنظيم — حياة غريبة لا

يقين فيها ولا أمان

— ولكنك لغيت دورنا الآلى في التنظيم !

— معذرة أيها الزميل ، لا رأى لى إذا اعتبرت رأى عقيدة ثابتة ، إنما أنا ابن

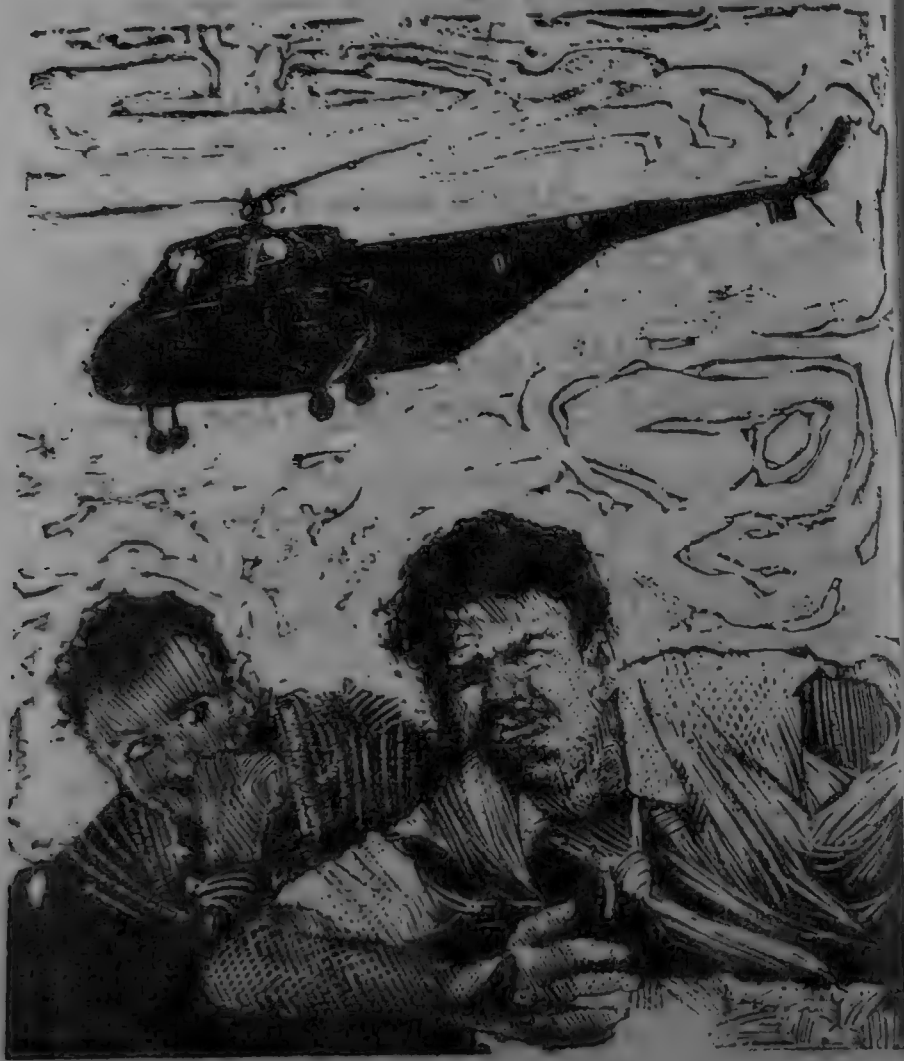
الساعة التى أنا فيها ..

— وهكذا فأنت ترغب في العودة ؟

— ليس ظلما أن ندفع ثمن الخطأ ، وسأجد بعد ذلك عملا أنال عليه أجرا ،

ولن تنعدم الفرص المشروعة للتسليية والمغامرة !

- لا فائدة من مناقشتك !
- إني أعجب لشأئك ، ألم تبد حرصك الدائم على المهمة ؟ ، ها هي المهمة بأيسر سبل ، ومعها التنظيم كله ، والعضوية الرسمية ، والندوب ، والزعم المجهول !
- ماذا أقول أيها الزميل ؟ ، لقد عايشت في هذا الخلاء جواً جديداً ، وسلمت نفسي لمنطق جديد ، وهيات إرادتي حياة جديدة .
- لعلك تبالي في الخوف من المحاكمة ؟
- كلا ، فهي لن تكون أقسى من المطاردة التي مستعقبنا !
- أنصر على الاعتماد على نفسك حتى بعد أن هبطت عليك معجزة النجاة ؟
- لن أطيع بعد اليوم أن أكون آلة صماء .
- ولكنه تنظيم كامل ، يوزع العمل بكل دقة تضمن النجاح !
- لم تعد أعصاني تحتل المعاملة مع المظاريق المغلقة ، ولا المندوب الغامض الذي نلقاه دقائق في أوقات راحته ، ولا الزعيم المجهول الذي لا ندرى عنه شيئا ، كلا ثم كلا ، وأنت نفسك كنت الباديء بالرفض !
- لا تدع فرصة العمر تفلت من بين يديك .
- خيل إلى أي أقتعتك قبل هبوط نوح ؟
- كلا ، إني أختار واحداً من طرفين ، فإما الهرب وإما التنظيم ، وأما هي الطائرة تنتظر فلا مجال للتردد بعد !
- أما أنا فطريقي واضح ، سأعيد الرحلة من جديد بدءاً من المدينة ولكن بعقل متفتح لا يقادر كبيرة ولا صغيرة ، وفي الجنوب ستنبثق المهمة من صميم رأسي لا من مطروف مغلق !
- توقع في كل خطوة مطاردة من الشرطة أو التنظيم !
- سيجد مني بقفلة كاملة لا يعثرها خور .
- سيكون مرافقاً معي ولكن لا بد من العودة ..



— ستعاني حياة منفصلة لأول مرة ، فكر في ذلك أيها الزميل القديم !
— إنه لأمر محزن ولكن لا بد من العودة .
— ستوقع عليك عقوبة ، سيلاحقك سوء الظن كظلك ، سيضعف ذلك من نصيبك من الآلية .

— وأنت !، ستهلك في هذه المناهة قبل أن تبدأ من جديد !
— كلا ، لقد جاءت الطائرة من تلك الناحية ، فهناك يقع الشمال ، وبالتالي
عرفت الجهات الأصلية ، كما عرفت الطريق إلى العمران ، ابق معي !
— يازميلي العزيز سوف تقتل في العمران إن لم تهلك في الخلاء ، تعال معي ..
— مستضي حياتك وأنت ظل لا حقيقة له ، تنفذ مهمة لا فكرة لك عنها ،
ابق معي ..

— أنت تخاف المحاكمة !

— إنني أرفض المحاكمة ، أرفض العقوبة ، أرفض العفو ، أرفض الأمر الغامض
والتنفيذ الأعمى ، أرفض المهمة داخل مظلوف مغلق ، أرفض النجاة الرخيصة
في الطائرة ، ابق معي .

— إنني أعجب لشأنك كيف انقلبت من النقيض إلى النقيض .
— قلت لك إنني ابن الساعة التي أنا فيها ، ولكنك أنت أول من فكر في
الانضمام إلى التنظيم ، أنت من دافع عنه بحسناته وسيئاته ، أنت من قبل بحماس
الدور الذي رسمه لك دون مناقشة !

— فعلت ذلك لتسلل إلى نفسي ، لحاط فكري بعلم وبغير علم مني ، فلما
وقفت في هذا المأرق تبست الحقيقة عارية ، والبيت إلى رأى حاسم .

— يخبرني أن يكون ثمرة من أساليب القلاوكة .

— سأشكر لك ذلك ما حيت .

— هنا دار غمرك الطائرة مجددا دوبا كالانفجار ، فهذه عبد القوي ؟
— فكر مرة أخرى أيها الزميل .

— فكرت بما فيه الكفاية .

— أمامك فرصة أخيرة !

— وأمامك فرصة أخيرة !

— ما أمر الفراق ..

— إنه لكذلك أيها الزميل القديم .

تهدد عبد القوي يائسا . فتح ذراعيه فتعانقا بحماسة . اشتد دوى المحرك .
انزع عبد القوي نفسه من صاحبه . مضى نحو الطائرة في خطوات ثقيلة . أخذ
يرقي في السلم حتى بلغ الباب . استدار فلوح لصاحبه مودعا فرد الآخر التحية
بمثلها . بدأت الطائرة في الصعود . دومت في الفضاء . أتبعها عبد الواحد عييه
وهي تبتعد وترتفع وتصفر حتى اختفت فيما وراء الأفق . وجد نفسه وحيدا .
وجد نفسه حزينا . ولكنه لم يبدد دقيقة من وقته سدى . شحذ إرادته لينفض عن
قلبه الحزن . قلب وجهه في الجهات الأصلية ليحدد طريقه إلى العمران . سار
متجها نحو الشرق ..

وليّد العنّاء

جلس وحيدا في الصالة . أرهقه ذرعها ذهابا وإيابا فجلس . ثبتت عيناه على الباب المغلق وأرهف السمع . أشعل سيجارة ، دخنها بطريقة آلية خالية من الاستمتاع ولم تتحول عيناه عن الباب المغلق . بدت من وراء الباب أصوات مبهمة ، حركة أقدام ، تأوهات خافتة ، أشاعت في جوه الخالي روحا مبلا بعرق العناء المر . ونظر في الساعة ، مرت عيناه بالنافضة المكتظة بأعقاب السجائر ، ونفخ وهو يمد ساقه .

وفتح الباب ففرقت منه امرأة عجوز مطوقة الوجه بخمار أبيض . ردت الباب وراءها وتقدمت ولكنه وثب معترضا سبيلها . انتهت إليه وقالت برقة :

— كل شيء حسن ، لا تقلق ..
فقال بانقباض :

— ولكن طال الوقت .

— إنها ساعة لا يعلم بأسرارها إلا الله فتوكل عليه .

— لولا السوابق الماضية ما باليت شيئا ..

— لا تذكرنا بما مضى ، الطيبة مطمئنة ، قالت إنها ستلد ولادة طبيعية ..

— بدأ الطلق في أول الليل وها نحن في الهزيع الأخير منه .

— ربك كريم ، وعندها طيبة لا داية ، فاصبر وانتظر .

شعر بامتعاض نبرتها فقال :

— لا تلوميني يا دادة ، هذا زمن الأطباء لا الدايات ..

— كم ولدت الداية أمها في يسر كالسحر ..

— ذاك زمان مضى ، وما من داية تستطيع أن تواجه هذه الحال ..

— كم واجهت مثلات لها في الماضي ..

— كل شيء تغير ، حتى المرض نفسه ..

مضت نحو الحمام ثم رجعت بوعاء من الصاج فدخلت الحجرة وأغلقت الباب . وجد شيئا من الطمأنينة . لم يأل جهدا في إقناع نفسه بما دامت الطيبة قد قالت . دق جرس الباب الخارجى فبادر إليه . استقبل القادم بدهشة وترحاب معا ، وهو تحيل طويل يكاد يماثله شكلا ويقاربه في العمر . أجلسه على مقعد إلى جانب مقعده وهو يتمم :

— خطوة عزيزة ، أهلا بك ..

— علمت بالخبر وأنا عائد من سهرة طويلة فلم أتردد في المجيء إليك ..

— أشكرك يا عزيزي ، إنها ساعة متأخرة جدا ..

— لا شكر على واجب ..

— ولكن كيف علمت بالخبر ؟

— من أكثر من مصدر فيما يحيل إلى ..

— لم أتصور أن أحدا علم به سوى أمها ..

— أنت يا صديقي لا تعلم بما يدور حولك !

— حدثني عن مصادرك !

— لا أدري ، لا أذكر ..

— لا تدري ولا تذكر !؟

— كنت وقتها ثملا بالشراب !

— وكانوا سكارى ؟

— المهم كيف حال الست ؟

— قالت الطيبة إنها ستلد ولادة طبيعية ..

— حمدا لله .

— ولكن السوابق تقلقني ..

— لا لوم عليك في ذلك .

— ولكن لا يجوز الخوف من السوابق أكثر مما ينبغي .

- عين الحكمة والصواب .
- أهذا هو رأيك أيضا ؟
- علينا أن نستفيد من السوابق لا أن نخافها .
- كانت سوابق إجهاض جبرى ونزيف .
- لا أعادها من أيام .
- ترى كيف يمكن الاستفادة منها ؟
- بأن نتجنب الأسباب التى أدت إليها ..
- ولكنه الحبل نفسه .
- فنتجنبه .
- ولكن أمر الله نفذ وكل شيء بأمره .
- أظن لك دخل فى الأمر أيضا ؟
- طبعاً ..
- ما ثور عنك حب الأبوة بلا حدود ..
- لا أنكر ذلك .
- صدقتنى إنه حب لا معنى له .
- إنه أصل الوجود !
- لا معنى له فى هذا العصر .
- إنها مداعبة ولا شك ؟
- فقال الصديق وهو يشير إلى الباب المغلق :
- أهذا وقت تجوز فيه المداعبة ؟
- ولكنه أصل الوجود بلا ريب .
- فى عصرنا هذا لم تكن معروفة فادعها .
- الطيبة قالت إنها ستلد ولادة طبيعية .
- فلياركها الله .

- ولكن الوقت طال وما نحن فى الخزع الأخير من الليل ؟
- يا لها من معاناة تتهتر لها الأفدة .
- أسعفتنى برأيك ؟
- لا أرى لى يعتد به فى هذه الشئون ولكن ماذا قالت الطيبة فى السابقة الأولى ؟
- كانت فى الواقع داية ولذلك أرجعنا الإجهاض الجبرى إلى جهلها ..
- والسابقة الثانية ؟
- قالت الطيبة إن النزيف حدث نتيجة لعب فى الجهاز ..
- وهل برأ الجهاز من عيبه ؟
- هيات لها ما استطعت من دواء .
- إذن فلا داعى للقلق .
- ولكن الوقت طال والمعاناة تتراكم .
- وانطلقت من وراء الباب المغلق تأوّهة عميقة ، أعقتها صرخة مدوية ، ثم موجة متقهقرة من الأنين . صمت الزوج محذقا فى الباب ، ولما مضى الانتظار بلا نتيجة قال الصديق :
- لعله البشير ..
- هى حال تتكرر من أول الليل .
- يا لها من ولادة عسيرة !
- ولكن الطيبة قالت إنها ستلد ولادة طبيعية .
- إذن فهى ولادة طبيعية طويلة !
- من أين لى باليقين ؟
- فلنرجع إلى أهل الخبرة .
- لديها طيبة ممتازة .
- الأراء تختلف .

- هل لديك اقتراح عملي ؟
- دعنا نفكر .
- قلت إن الآراء تختلف .
- هذا قول صادق في ذاته .
- كيف نبليغ اليقين ؟
- الحقيقة بنت البحث !
- إنك مغرم بالأقوال المأثورة .
- سجية جميلة في ذاتها !
- ولكن لا وقت لدينا للبحث .
- هذا حق ..
- فكري تبلبل .
- هذا حق .
- أراها حالا مرضية ..
- هي أحيانا كذلك !
- لم يبق إلا الصمت والانتظار .
- قد تفوت فرصة نادرة !
- فماذا أفعل ؟
- بعد تردد :
- الصمت والانتظار !
- ولكنك قلت إنه قد تفوت فرصة نادرة ؟
- وقد لا يحدث شيء !
- فكيف أتصرف ؟
- فكر !
- إذا فكرت نلت امرأتى بسلام ؟

- يتوقف ذلك على نوع العلاقة بين التفكير والولادة !
- ترى أى نوع من التفكير يمكن أن يؤدي إلى الولادة السعيدة ؟
- فكر !
- يبدو أنك لا تعرف أكثر مما أعرفت .
- وربما أقل !
- فسأله بترفضة :
- لم جئت ؟
- جئت مدفوعا بواجب اللياقة ..
- شكرا .
- عفوا .
- في أمثال هذه الظروف يقدم المجاملون ما في وسعهم من خدمات ؟
- إني على أتم استعداد .
- ماذا في وسعك أن تفعل ؟
- آأنت في حاجة إلى نقود يا صديقي ؟
- إني في حاجة إلى من يسعفها هي ..
- عندها طيبة غماسة .
- ترى هل أخطأت ؟
- أنت ؟
- نعم .
- ما كان يجوز أن تتركها تجبل .
- إنها بنت غلطة .
- بل أنت مجنون بالأهوة ..
- هذا شأن الرجال جميعا .
- احذر الأحكام الشاملة .

- إذن لماذا يتزوج الرجال ؟
- أفكرت يوم عشقتها في الأبوة أم في الاستمتاع بها ؟
- الاستمتاع بخمد ، أما الأبوة فخالدة !
- ما كان أجدرك أن تجد في السابقتين نذيرا !
- الحياة إقدام لا نكوص .
- إذن فلتتحل بالشجاعة .

رماه بنظرة نافذة . هم بالكلام ولكن الباب فتح وخرجت . امرأة في الخمسين منهوكة القوى . وقف الزوج لاستقبالها . قدم لها صديقه وقدمها له باعتبارها حماة . رفضت المرأة الجلوس وظلت متجهمة الوجه . سألتها بإشفاق :

— كيف الحال ؟

— الحمد لله ..

ثم بمحبة موجهة خطابها للزوج :

- إني أحتج على ما تذيعة في كل مناسبة من التشكيك في كفاءة ابنتي للحبل !
- فقال الزوج محتجا بدوره :
- لم أشبك في كفاءتها ولكن الحكمة تقتضى تذكر الأزمان السابقة !
- لا عيب في ابنتي على الإطلاق .

— إني مؤمن بذلك .

— العيب فيك أنت !

— أنا ؟

— طالما نغصت صفوها بنزواتك حتى سممت بدنها فأصبحت جميع شئون حياتها عسيرة لا ولادتها فقط !

— علم الله أن زوجا لا يحب زوجه كما أحبا .

— وجربك وراء كل من هبت وديت من النسوان ؟

- أعوذ بالله ، أتصدقين شائعات يفتريها على الحاسدون ؟
- أنا لا أتكلم بلا حساب دقيق .
- وأنا مظلوم ظلم الحسن والحسين .
- وتدخل الصديق قاتلا بلطف :
- أشهد أنه يحبها فوق كل شيء .
- فالتفتت إليه متسائلة في احدة :

— ماذا تعرف عن أسرار هذا البيت ؟

— أعرف ما يجدر بالصديق أن يعرفه .

— إذن فأنت بخير ولا شك بغرامياته ؟

— لا غرام له إلا الأبوة .

— بل لعلك تشاركه بعض مغامراته ولذلك تنبرى للدفاع عنه ؟

— سيدنى !

— إني خير من يفهمكم .

— الزوج الوفي يظل وفيا حتى لو تسلل بصره إلى هذه أو تلك من النساء ..

— ما شاء الله ..

— صدقيني يا سيدنى ، إنه لا يثبت أركان الحياة الزوجية ويجنبها الملل مثل

النتقل العابر بين النساء !

— ها أنت تعرف !

فصاح الزوج :

— أنا لم أعترف ، وأعلن استنكارى لهذه النظرية !

فقال الصديق مترجما :

— إني أضرب مثلا ليس إلا .

فهتفت المرأة :

— يا لسوء حظك يا ابنتى !

فقال الصديق :

— لا تخلو حياة من المر مهما تكن حلوة ، وأشهد أني ما سمعت زوجة صديقي تشكو قط .

— ذلك أنها من الصابرات الصديقات !

— لو كان هناك ما يدعو للشكوى لشكت .

— حتى الجوع !.. تضورت أياما من الجوع !

فصاح الزوج :

— الجوع !!

وقال الصديق :

— لعلها تشير إلى الأيام التي ندرت فيها اللحوم ؟

فقال الزوج :

— على أيامك يا حماق أكل الناس لحوم الخيل .

فهتفت المرأة في كبرياء :

— كانت أيام بلاء واحتلال .

— على أي حال فنحن سعداء ولن نسمح لمخلوق بإفساد حياتنا السعيدة !

دوت صرخة وراء الباب المغلق فألجأت الألسن . أسرعت المرأة إلى الحجرة

فأغلقت الباب وراءها .

عاد الصديقان إلى مجلسهما وعاد التوثر يركب الزوج جسدا وروحا . لم يجد

من يفرغ فيه شحنة قلقه سوى صديقه فقال له :

— كلامك تجاوز كل حد .

— كبر ما أفسد نفسي في الحميم فبعثني الصديق .

— قد يغلبك الصديق مرة أخرى فحارب بيني .

وقبل أن يرد عليه دق جرس الباب الخارجى . قام الزوج فاستقبل زائرا

جائدا في تلك الساعة من الليل . عجوز طاعن في السن . لو قدر عمره بتجاعيد

وجهه وغضونه لجاوز المائة ولكنه تمتع بحياة لا بأس بها . وهو نحيل لدرجة مخيفة كأنه محض عظام . برزت وجنتاه وفكاه وغارت عيناه فلم يبد في محجريهما إلا ظلام . وتربع رأسه فوق عنقه الدقيق ضخما أصلع منبعج الجبين . وعكس الوجه هيئة جامدة بل متحجرة وندت عن القدمين خطوات متقاربة غير مسبوقة . قبل الزوج يده المدبوعة ، قدم إليه صديقه ، قدمه هو باعتباره صديق المرحوم أبيه والمرحوم جده من قبل ، وجاءه بفوتيل فأجلسه بينهما وهو يقول :

— لم أتوقع أن تتجشم مشقة الحضور في هذه الساعة يا عماء ..

فقال العجوز بصوت غائر مثل عينيه :

— طال انتظاري للبشرى فقررت زيارتك ..

— ما كان ينبغي أن تكلف نفسك هذا التعب .

— هل من خدمة يمكن أن أقدمها لك ؟

— لا مطلب لى إلا زوجتى .

— ينحىل إلى أنها ولادة عسيرة حقا ؟

— قالت الطبيبة إنها ستلد ولادة طبيعية .

— عظيم ..

— ولكنها طالت كما ترى .

— هذا واضح ..

— وعندما أتذكر المرتين السابقتين ؟ ..

— المؤمن لا يخاف ولا يقلق .

فقال الصديق :

— هذا ما زددته له مرارا .

فقال العجوز باسمها عن أنياب عتيقة :

— أنشك في ذلك يا بنى ؟

ضحك الصديق متسائلا :

- ألا يتوقع مني مثل ذاك القول الحكيم ؟
- هذا أقل ما يقال .
- شكرا .
- عفوا .
- يخيل إلى أني رأيت سيادتك قبل الآن ؟
- يعرفني أهل الحى جميعا .
- لست من أهل الحى فمعدرة ولتحل بركتك بالبيت .
- فلتحل به بركة الله الرحيم .
- صديقى قلت وفي حاجة إلى من يشجعه .
- علينا أن ندع لمشئته الله قبل كل شيء .
- والظاهر أن قوله لم يشر بالطمأنينة المفقدة فساد الصمت قليلا حتى خرقه الزوج قائلا :
- جئت لها بطيبة منازة .
- لم تكن توجد طبيبات في الزمن الماضى .
- ذاك زمن مضى وانقضى .
- أعرف زوجة ماتت في مستشفى خاص تحت إشراف ثلاثة أطباء !
- أعوذ بالله !
- فلا عامم لنا إلا إرادة الله .
- ولكنى لم أخطئ باستدعاء الطبيبة !
- وقال الصديق متضايقا :
- ما أجدر أن نتجنب ذكر الموت في موقفنا هذا .
- فقال العجوز :
- ولكنك حينئذ كل يوم وكل ساعة
- تفكر في الموت .

- هذا حق ولكنه حديث غير محبوب ..
- لم يابنى ؟
- الموت لا يحبه أحد !
- ياله من خادم أمين مظلوم !
- مظلوم !؟
- كيف تتصور الدنيا بغيره ؟
- أفضل مما كانت معه عشرات المرات .
- أنت مخطئ يا بنى ، مخطئ في حق ناثر عظيم .
- ناثر عظيم !؟
- بل زعيم الثوار في كل زمان ومكان .
- لغة أى عصر هذه ؟
- لغة العصر ، لغة الغد ..
- فلنختر حديثا آخر ..
- ما جدوى الأحاديث المعادة ؟
- أصارحك يا عماء بأننى لا أفكر إلا في سلامة زوجتى .
- فلتحل بها بركة الله .
- آمين .
- ولكن خبرنى هل جددت مقبرة الأسرة ؟
- فهتف الصديق :
- يا الطاف الله !
- ونساءل الزوج بامتعاض :
- من أخبرك أنني أفكر في ذلك ؟
- تلك كانت رغبة أهلك لولا أن عاجله الموت .
- أما أنا فلا يمكن أن أفكر مليحا على تجديد مقبرة !

— أحسنت .

وقال الصديق نافعا :

— إنى أنذر جنيتها استرلينيا إذا تغير الحديث .

فقال العجوز دون مبالاة للمقاطعة :

— كلما رأيت مقبرة متجددة حزنت !

فتساءل الصديق :

— الظاهر أن سيادتكم تزور المقابر كثيرا ؟

— شيعت المئات من الموتى بحكم بيتى الطاعن !

— وماذا يحزنك فى مقبرة متجددة !

— أرى المقبرة العتيقة البالية من آيات الرحمن !

فقال الزوج برجاء :

— ملاحظتنا بحديث آخر ؟

— سنجد حديثا أو آخر ، سيشرق بنا ويغرب ، ثم لا مفر من العودة إلى

الحديث الأول .

— إنه حديث كتيب خائن للقلب :

— أشك فى ذلك !

— لا شك فى ذلك من ناحيتى !

فقال العجوز بصوت هامس مخاطبا نفسه :

— حتى لو طال الزمن ، حتى لو طال بالقدر الذى أنصروه

لأقيا .

ثم نظر قائلها . نظر نحو الباب المغلق وقال :

— آه لى أن ألقى نظرة .

فعلت الدهشة وجهى الصديقين وتساءل الزوج :

— على أى شىء يا عماء ؟

— على زوجتك .

— زوجتى !.. شكرا . ولكن لا تكلف نفسك مزيدا من التعب .

— إنه واجب يا بنى !

— ولكنه غير جائز !

— كيف ؟

— غير جائز بلا حاجة إلى تفسير !

— إنى صديق أهلك وجدك من قبل ، صديق حميم ..

— لو كان أبى نفسه مكانك ما خطر له ذلك !

— إنك تمنعنى من أداء واجبى !

— إنى أطلبك بالجلوس مشكورا ..

— هبنى طيبا .

— ولكنك لست طيبا !

— وما الفرق يا بنى ؟

— مزاح لطيف !

وقال الصديق :

— وبإله من مزاح !

فقال العجوز دون التفات لمقاطعة الصديق :

— إنى ألصق بك من الطيب .

— أجلس يا عماء مشكورا مكرما !

فتح الباب . خرجت امرأة متوسطة العمر تنهذى فى معطف أبيض وتنظر من

خلال نظارة أنيقة ذات مشبك ذهبي . أقبل الزوج نحوها متسائلا فى لهفة :

— دكتورة ؟

فقالت المرأة بهدوء :

— غير منتظر أن تلد سريعا ولكنها ستلد ولادة طبيعية .

انتهت إلى وجود العجوز فصافحته مصافحة حميمة ، وقال الرجل :

— أهلا بك يا عزيزة ، رحم الله أباك .

— أهلا بك يا عماء .

— وكيف حال الأم الصغيرة ؟

— طبيعية وإن تكن شديدة بعض الشيء .

— كلام يذكرني بأقوال الأطباء !

— ماذا تعنى يا عماء ؟

— كلام يشى باحتالات كثيرة !

— الحال طبيعية جدا ولكننا لا ندخل في علم الله .

— آه من الأطباء إذا ردوا ذكر الله !

— ولكنى أتكلم بصراحة .

قال الزوج بحدة :

— صار حوى بكل شيء .

فقال الطيبة :

— ضع ثقتك في الله .

فقال العجوز :

— كلام له مغزى خاسم .

فقال صديق الزوج :

— عمنا يتلهف على سماع كلمة سوء !

فقال العجوز :

— وأنت تتلهف على سماع كلمة كذبة .

وقالت الطيبة :

— الحال طبيعية جدا يا عماء .

— لم تركت الحجرة ؟

— لأستريح دقيقة .

— أردت الدخول فمنعونى .

— لا يوجد رجل في الداخل .

— وما رأيك أنت في ذلك ؟

— لا رأى لى في ذلك يا عماء .

— بل تستطيعين أن تدلى برأى حاسم في الموقف .

فقال الزوج بإصرار حازم :

— مكانك معنا يا عماء .

وتساءل الصديق :

— ألم تحبى للأطمئنان على ابن صديقك الراحل ؟

— ولكنه لا يعانى ولادة عسيرة !

— وأنت لا تعرف الزوجة إلا بصفتها زوجة ابن صديقك الراحل .

— والدها أيضا كان صديقا لى .

— لعلك شيعته كالأخرين ؟

— وهو ثواب كبير ..

وهتف الزوج :

— مكانك بيننا يا عماء ولا لزوم للأخذ والرد .

فرفع العجوز منكبها أسفا وقال مخاطبا الطيبة :

— إنكم تعذبون الناس بلا سبب معقول .

فقال الطيبة :

— نحن تؤدى واجبنا الإنساني ..

— ولا تميزون الصديق من العدو .

— ما أظرفك يا عماء .

— وأنتم المسئولون عما يحل بالإنسان من ضرر بالغ ..

— ساعحك الله يا عماء .

— فليساعحك أنت .

— وسأله الصديق :

— ماذا تعنى يا عمنا ؟

— لا غموض فى كلامى .

— لعله يحتاج إلى شىء من التبسيط .

— يتعذر التبسيط على من هو فى مثل عمى .

— إن عطفك يا عماء يركبك الصعب ..

— إنك فى مشاغب .

أحنث الطيبة رأسها تحية ثم رجعت إلى الحجر فاعلقت الباب . وهتف الزوج :

— يا لها من ليلة ليلاء !

فقال صديقه :

— عما قليل يطلع الفجر .

عاد العجوز إلى مقعده وهو يقول :

— ما باليد حيلة .

وأسند رأسه إلى ظهر الفتيل وأغمض عينيه مستوها الراحة أو النوم . وارتفع المصراع من وراء الباب . مرات متتابعات ثم سكت . تابعه الزوج باهتمام ولكن الباب انغلق تبدى صلبا عنيدا أصم محذقا فى لا شىء بنظرة باردة مترفعة . واضح أنه لم يجد جديد وأن الكفاح غير المنظور يضطرم بلا هوادة . وفتح الباب عن زاوية ضيقة وتسللت منه قذارة فى العشر من قرط فى فستان أبيض . أشرقت بوجه بدا . رغم الإبهالك . كالتقى الساطع . حيث الحالسين ولكن العجوز لم يبد حراكا وظل مغمض العينين . وقالت الزوج :

— إنها تريدك .

قام الرجل فمضى إلى الداخل وأغلق الباب . ذهبت الجميلة إلى كنية فى الجانب المقابل لمجلس الرجال ثم جلست . لم يحول الصديق عينيه عنها مذ طلعت عليه من الحجر . التقت عيناها مرة ثم غضت البصر فى إعياء . قال :

— لعلك فى حاجة إلى شراب متعش ..

فأجابت :

— إني فى حاجة إلى شىء من الراحة .

— شققت على نفسك بالبقاء فى الداخل إلى جانب شقيقتك .

— إنها معاناة مزوعة ..

وقام ، ربما متشجعا بنوم العجوز ، فجلس إلى جانبها وهو يقول :

— قلبى معك طيلة الوقت !

— الله معها ..

— من أجلك جئت فى هذه الساعة من الليل ..

— ظننتك جئت من أجل صديقك .

— كان من الممكن أن أزوره صباحا ، ولكن من أجلك أنت ..

— ماذا تريد ؟

— إنك مرهقة الأعصاب ؟

— ربما .

— كلانا مرهق الأعصاب !

— أنت أيضا ؟

— شاركت صديقى آلامه ، يضاف إلى ذلك تفكيرى الدائم فىك !

— شكرا ..

مال نحوها كالمسحور فلم يلبث فاما . لم تقاومه ولم تشجعه . قالت :

— معذرة فإني أكره الرجال فى هذه اللحظة !

— ذلك من تأثير ما شاهدت فى الحجر ولكنها لحظة سرعان ما تمضى .

— من يدري ، ولكن كيف قبلتني ؟
 — إنه سحرك الذي لا يقاوم ، وغرامى القديم الذي لم ترفضيه على الأقل !
 — إنه تصرف لا يغتفر .
 — هيا معى إلى الليل في الخارج .
 — أحلام جنونية .
 — سنستقبل الفجر الندى معا .
 — هيات لقلب ميت أن يستجيب لجنونك .
 — إنه الدواء الشافي لما نعانى من اضطراب .
 أراد أن يقبلها مرة أخرى ولكنه رآها تنظر نحو العجوز المغمض العينين باهتمام طارئ فقال :

— لا تهتمى له ، إنه مستغرق في النوم !
 حاول أن يضمها إلى صدره ولكنها دفعته فأراد أن يعيد المحاولة وإذا بصوت العجوز يقول دون أن يفتح عينيه :
 — عد إلى مجلسك يا بنى !
 ارتد عنها متزعجاً . نظر نحو العجوز فرآه مغمض العينين مطروح الرأس إلى ظهر القوتيل . قطب جانفا ولكنه لم يتخل عن مجلسه . تجاء الصوت البارد يقول معتفا :

— لا ترتكب فضائح أمام الباب المغلق !
 قام الصديق متعزراً . عاد إلى مجلسه جانفا . فتح العجوز عينيه فتلقى نظرة الفتاة النابتة . تبادلنا نظرة طويلة دسمة . ابتسما معا . قام العجوز وهو يقول :
 — أعصابك مرهقة يا ابنتى .

جلس إلى جانبها . تناول يدها برفقة فوضعها بين يديه المدبوغتين . قال :
 — ما أخرجك إلى راحة طويلة .
 — جذبها بلطف فاستسلمت له حتى أجلسها على فخذه وهو يهمس :



— كما كنت تجلسين وأنت صغيرة ..

ثم وهو يرت على خدها :

— رحم الله أباك ..

فقال الصديق بغضب :

— وضع غير لائق .

فقال العجوز :

— كل شيء في وضعه !

— ألا ترى أنها لم تعد صغيرة بعد ؟

ومد لها شفتيه الجافتين المكرمتين فوهبته شفتيها فراح يقبلهما . وقف

الصديق هاتفا :

— أى فعل فاضح !

ولكن الفتاة طوقته بذراعيها وأنامت رأسها على كتفه منخرطة في هيمان

ساحر . صاح الصديق :

— لا تتأدى في الإجمام .

فهمس العجوز في أذن الجميلة :

— اهدنى يا جميلتى .

فغمخت :

— أريد أن أنام .

— ستنامين كما سعد ما يكون .

وفتح الباب وخرج الزوج . عاد إلى مجلسه فجلس واضعاً رأسه بين يديه .

توقع الصديق أن يفصل العجوز عن الفتاة ولكنه واصل مناعاته وكأنه لم يشعر

برجوعه . عند ذلك صاح الصديق :

— دعها أيها العجوز القبيح !

رفع الزوج رأسه متزعجاً وقال لصديقه :

— ما هذا الصياح !.. أجننت ؟

فأشار إلى العجوز والفتاة قائلاً :

— انظر !

— لعلها في حاجة إلى عطف ، عد إلى مجلسك :

— آنت أعشى ؟

— احترم خالى التعيسة !

وهمس العجوز في أذن الفتاة :

— هلمى نذهب معا .

— إلى أين ؟

— إلى الليل ..

— الصبح قريب .

— ما زال في الليل بقية تكفى غطاء للعاشقين !

— خذنى إلى حيث تشاء .

— ما أجمل عينيك المخضلتين بالأحلام .

— ما أعذب همساتك ولمساتك .

فهتف الصديق :

— ماذا يحدث في الدنيا ؟

فقال الزوج بخدا :

— تصرف كرجل مهذب .

— ثمة علاقة عاطفية نشأت بين العصر الحجري والعصر الحديث !

— تأدب ، إنه عمها ، عمنا جميعاً ، ألا تفهم ؟

— انتركها تذهب معه ؟

— هذا شأنها ..

— ولكنه يحدث في بيتك مع بعض أهلك !؟

— عندي من الشواغل ما يكفي ..

وكان العجوز قد قام وقامت الجميلة معه مستسلمة كالنومة فوثب الصديق

معترضا سبيلها وهو يقول :

— لن أسمح بذلك ، سأدافع أنا الغريب عن شرفك !

فقال له العجوز بنبرة ساخرة :

— إنها نفس الرحلة التي دعوتها إليها !

— ولكنها معك تفقد كل الإنسانية !

وصاح الزوج :

— اذهبوا جميعا واتركوني في سلام ..

فقال العجوز :

— سمعنا وطاعة ..

ولكن الصديق صرخ :

— دعها فهي لي أنا وحدي ، أنا المرشح للزواج منها .

فسأله العجوز ساخرا :

— منذ الذي رشحك ؟

فأجاب الصديق بحق :

— كانت الأمور تسير سيرا حسنا بيني وبينها حتى تدخل صوتك الكريه ..

جلجلت وراء الباب المغلق صرخة مدوية . أفضع من سابقتها جميعا . تحول

الزوج نحو الباب منذعرا . تسمر الصديق في موضعه . رفعت الجميلة رأسها عن

صدر العجوز كمن تفتق من غيبوبة ، تخلصت من ذراعيه وهي ترمقه في

ارتباك ، ثم هزعت إلى الخجرة فدخلت وأغلقت الباب وراءها . تغمم العجوز

تمتعنا :

— ما أضيعها من ليلة !

ومضى نحو مقعده فارغى عليه وأغضب جفنيه . وجلجلت صرخة أخرى .

تنهد الزوج متسائلا :

— أما لهذا العذاب من نهاية ؟

— لا تتوقع خيرا طالما هذا النحس باق !

ولكن الباب فتح ، ومنه مرقب الطيبة متهللة الوجه . هتف الزوج واقفا :

— ماذا وراءك ؟

— مبارك عليك .

— حقا ؟

— مولود سعيد ، حال الوالدة طيبة وإن تكن جد متعبة ..

— حمدا لله ..

وشد الصديق على ذراعه قائلا :

— مبارك .

على حين قال العجوز دون أن يفتح عينيه :

— تهاني يا بني ..

وقالت الطيبة :

— كانت ولادة عسيرة حقا ، لم أصارحك بشيء طبعاً ولكني استعنت

بأحدث وسائل التكنولوجيا ..

فسألها الزوج :

— وهل من الممكن أن أراه الآن ؟

ولكن جرس الباب الخارجى دق فجأة . هزول الزوج إلى الباب وما كاد

يفتحه حتى اندفع إلى الداخل أربعة رجال شاهري المسدسات . أغلقوا الباب

وراءهم وصاح أولهم :

— ليلزم كل مكانه ، لا صوت ولا حركة ..

تقهقر الزوج أمامهم حتى جلس — مؤثرا — على مقعده ، وإلى جانبه

أجلست الطيبة . وتساءل الزوج :

- من أنتم ؟ ماذا تريدون ؟
 — عليك أن تحبب لا أن تسأل .
 قلب الرجل عينيه فيهم مهددا ولما رأى العجوز — وقد فتح عينيه — قال له
 بيرة جديدة :
 — معذرة يا عماه عن إزعاجك ولكنها الضرورة ...
 فسأله العجوز :
 — عم تبحثون يا بنى ؟
 — عن مولود دخل الدنيا في هذه الساعة ..
 — وهل كنتم تتوقعون مولده ؟
 — أجل .. منذ عام ونحن نرقب مقدمه !
 فسأله الزوج :
 — ما معنى هذا الكلام الذى لا معنى له ؟
 فانقض عليه الرجل ولكمه لكمة أذهلته عما حوله وقال :
 — تأدب ، نحن تتبع إشارات جهاز دقيق لا يكذب ..
 انقبضوا فى الصمت حتى قالت الطيبة متسائلة :
 — وماذا تبغون من مولود لم يكذب يرى النور ؟
 — إنه يهدد الأمن والسلام ، ونحن لن نعفيك من المسئولية يا دكتورة !
 وقال الرجل الثانى :
 — كما لن نعفى منها الأب والأم ..
 وقال الرجل الثالث :
 — جميع من شهد الولادة مشتركون فى الجريمة !
 وقال الرابع :
 — الجميع عدا عمنا العجوز الذى بعفيه سنة من مشكلات الدنيا
 همس الصديق — وهو لا يدري — فى أدنى الطيبة :

- وقعنا تحت رحمة مجانين .
 فانقض عليه الرجل الأول ولكمه لكمة شديدة وقال :
 — ستحاسب على قلة أهلك كما ستحاسب على اشتراكك فى الجريمة .
 وقال العجوز موجه خطابه للزوج :
 — تمالكوا أعصابكم والزموا الهدوء فالموقف أخطر مما تظنون ..
 فسأله الزوج :
 — إنك تعرفهم كما يعرفونك فخيرنا عما يريدون ؟
 فقال الرجل الأول بصراحة :
 — نريد المولود .
 — ماذا ستفعلون به ؟
 — ننقذ الدنيا من شره .
 فقال الزوج للعجوز :
 — إنهم يريدون اغتيال المولود البريء .
 فقال العجوز :
 — ما عليك إلا الإذعان للقدر !
 — تركهم يقتالون وليدا لم يكذب يرى النور ؟
 — ما جدوى إهدار دماء جديدة بلا فائدة ؟
 وصاح الرجل الأول :
 — حذار أن تبدر حركة عن أحدكم فهلك فى الحال .
 وتقدم الرجل نحو الباب المغلق ولكن العجوز قام وهو يقول :
 — أنفتحمون الحجرة على النساء ؟
 فتوقف الرجل قائلا :
 — نحن قوم متحضرون فتصرف أنت يا عمنا ..
 مضى العجوز إلى الحجرة ، نقر على الباب مستأذنا ، ثم دفع الباب ودخل ،

غاب قليلا ثم رجع حاملا الوليد بين ذراعيه تبعه الحماسة والفتاة الجميلة والدادة في اضطراب وتساؤل : وقال العجوز للزوج :
— الأم مستغربة في النوم فاطمئن من هذه الناحية :
ورأت الدادة الرجال المسلحين فهتفت :
— اللهم الطف بنا .

وتساءلت الجميلة :
— أغراب ومسدسات .. ما معنى هذا ؟

أما الحماسة فقد سألت الزوج بحدة :
— من هؤلاء ؟

فأجاب ببرات باكية :
— إنهم يريدون الوليد ..

— ماذا يريدون منه ؟

فقال الرجل الأول :
— نريد أن نقتل الدنيا من شره !

فصاحت الدادة :
— مجانين .. مجانين .. انظري إلى أعينهم !

فحرك الرجل مسدسه مهددا وقال :
— منطلق النار لدى أى حماقة ترتكب !

فقالت الحماسة مخاطبة الزوج :
— أطيعي بعض مبادئ من أمجادك !

فدفع الزوج يده إلى جيبه فخرج النكته ، فأرسلت الحماسة وهي تزدهر قسوة :
— أرى إليهم بعض أمجادك الذين نسي ، إليهم في زواياك لمواقع من القصر !
فأقرب الرجل الأول من العجوز فألقى على الوليد نظرة وقال بحقد :
— وقعت ، أنحر ، وقعت ، سترج العالم من شرك !

ووثب الزوج كالجنون ولكنه عرج بلكنات كالمطر فتهاوى فوق مقعده .
وبسرعة فائقة أجلس الرجال المسلحون الآخرين على مقاعد متقاربة فأوثقوا أيديهم وكمموا أفواههم ، ثم وقفوا صفوا واحدا وقال أولهم للعجوز :
— ضع الشيطان الصغير فوق الخوان .
ثم قال لرجاله :

— لدى ابتعاد عمنا أطلقوا النار على الشيطان ..

تحرك العجوز في صمت خائق ، بين أعين عددة . وفجأة انتفض الوليد في لفافته فأزاحها وتجرد عاريا . وبسرعة مذهلة طار كالقراشة ، انتفض على الرجال الأربعة فلحم كلا منهم لكمة بقبضته الصغيرة ثم رجع فاستقر فوق يدي العجوز . وقع ذلك بسرعة كسرعة الضوء ، ذهل الرجال الأربعة وتجمدوا . سقطت المسدسات من أيديهم . تقوضت قاماتهم فتهاووا على الأرض لا حراك بهم . وخيم الضمت والجمود والرهبة . خيم الضمت والجمود والرهبة حتى تحرك العجوز بالوليد فوضعه على الخوان . وراح يحل أوثقة الرجال والنساء . ثم مضى بالوليد إلى حضن أمه ، فلما رجع وجد الجميع واقفين في ذهول . يتبادلون النظرات ثم يركزونها فوق الرجال الراقدين بلا حراك .

— ما هذا ؟

— أحق ما رأينا ؟

— أهو سحر ؟

— أنحن نيام ؟

— الوليد .. أحق أنه هو ؟ ..

— لولا وجود الرجال الأربعة لمضى الحدث حلما من الأحلام ..

— إنه حقيقة ، حقيقة خفيفة ..

— لنسأل الله اللطف بمقولنا .

وقالت الحماسة :

— إنه معجزة من معجزات الله القهار !

فسأل الصديق الطيبة :

— ما رأيك يا دكتورة ، ألدبك تفسير لذلك ؟

فقالت الدكتورة بحيرة شديدة :

— أحيانا ، أعنى فى أحوال نادرة ، عقب آلام معاناة رهية ..

— ماذا يحدث عقب الآلام والمعاناة ؟

— ما يشبه المعجزة !

— أن ينقلب وليد إلى قوة كونية خارقة !؟

— قريب من هذا ما سجلته مذكرات بعض الأطباء فى العصر الفرعونى وفى

العصور الوسطى .

وتحول الصديق نحو الرجل العجوز فسأله :

— ما رأيك أنت يا عماه ؟

فقال العجوز بلا مبالاة بسؤاله :

— الأفضل أن نسأل عما يمكن عمله بهذه الجثث !

وهتف أكثر من صوت :

— الجثث !!

وانحنى الطيبة فوق الرجال ففحصتهم ثم قامت وهى تقول :

— رباه .. لقد فارقوا الحياة حقا ..

فصرخ الزوج :

— فارقوا الحياة !؟

== بكل تأكيد ==

— يجب استدعاء الشرطة فوراً .

فسأله الصديق :

— ومن يجب إنفاضا عن القاتل ؟ ، أو إنفاضا عن أسباب القتل ؟؟

فقالت الفتاة الجميلة :

— يا له من موقف لم يخطر لأحد على بال .

وقال الزوج :

— ستوجه التهمة إلينا نحن !

وتساءل الصديق .

— أيمكن التخلص من الجثث ؟

— وكيف نتخلص من جثث أربع عمالقة ؟

فأجاب العجوز متطوعا :

— ولكنه لا حل لديكم سواه ..

وتحولت إليه الأعين مستطلعة ومستغيثة معا فقال :

— طالما أبديت استعدادى لأداء أى خدمة تطلب منى ، وها أنا أعتبر هذا

العمل من اختصاصى ..

وأعرض عنهم متجها نحو الجثث حتى أطل بقامته عليها . مد يده إلى الجثة

الأولى . رفعها ثم طرحها على كتفه اليسرى وكأنه يرفع قشة . رفع الجثة الثانية

فوضعها فوق الأولى بالسهولة نفسها . كذلك حمل الجثتين الأخريين على كتفه

اليمنى . كأنه كان يتسلى بلعبة محببة دون عناء . وكأنه استجد لنفسه شابا

أسطوريا بمعجزة . وقال بهدوء :

— افتحوا الباب !

ومضى بحمله بأقدام ثابتة وفى غير جهد . وفيما يشبه المرح والجميع يتابعونه

بأعين ذاهلة . وظلوا فى وقتهم كالمثومين حتى أفاق الزوج فأقبل على الطيبة وهو

يقول :

— أنت وحدك تستطيعين أن تعيدى العقول المتطايرة إلى مستقرها الآمن فى

الرءوس .

نافذة في الدور الخامس والثلاثين

مد ساقه مستسلما لطرادة الفوتيل . شعر بشيء من الجهد في نهاية نهار حافل بالنشاط . أضاء الخادم العجوز مصابيح البهو وألقى نظرة أخيرة على البار والمائدة الشهية ثم هم بالذهاب ولكنه قال له :
— أطفئ النور حتى يأتي المدعوون .
فصدع العجوز بالأمر وذهب . أما هو فقد غاب هيكلة النحيل في ظلمة المغيب . ومضى يرنو من خلال النافذة في الجدار المقابل إلى المقطم وراء النيل والحقول وشرق المدينة . وقال لنفسه :
— عيد ميلاد جديد ، سبع شمعات رمزية ، ما أكثر الأعوام وما أقل من بقي من الأصدقاء ..

وأغمض عينيه وهو يتمتم :
— ترى ما عدد الأرغفة التي التهمت ؟ ، وعدد الخزاف والعجول ؟ ، والأفدنة من الخضروات والبقول ؟ ، والأمواج من مياه النيل ؟ ، والسعرات الحرارية التي استهلكت في اللعب والعمل ؟
وتأذب طويلا وهو يقول :

— سعيد من يبلغ هذا العمر وهو مرتاح الضمير !
وأسلم للصمت ليسترد حيويته . وأعجبه أن يسبح في صمت عميق لولا أن تناهى إلى سمعه خفيف ثوب أو تردد أنفاس . فتح عينيه فرأى في وسط البهو تقريبا

سبحان الله الذي خلق الإنسان . تسالط

— من ؟

وأمعن النظر ثم قال بلهشة :

— جالس في المقعد المسكين !

ولم ينبس العجوز بكلمة فقال الرجل :

— ذكريات الصبا التي لا تنسى ، كيف صعدت إلى شقتي في الدور الخامس والثلاثين ؟

لم يتكلم العجوز ولم تند عنه رغبة في الكلام فقال :

— أدفعتك الحاجة إلى الجيء ؟

وانتظر عينا أن يتكلم ، ثم تساءل :

— أتريد كالأول بعض النقود أو الملابس القديمة ؟

تراجع العجوز خطوات فقال الرجل :

— خطرت على بالي مرأت فظنتك انتقلت إلى دار البقاء !

ولأول مرة قال العجوز بصوت ياردا :

— لم يجب ظنك !

— حقا ؟

— حقا !

— كأنما جئت تحية لعيد الميلاد .

فقال بصوت غليظ :

— غليك اللعنة !

— اللعنة ؟

— وعلى جميع المجرمين !

وتراجع أكثر فاخفى تماما . اخفى قبل أن يطفىء وقدة تساؤلاته . قبل أن يجلو سرا غضبه عليه وتكره لإحسانه . وتساءل :

— ماذا يقع في العالم الآخر من أمور يشق على عقولنا هضمها ؟

فجاءه صوت ناعم يقول :

— ألا زلت تكلم نفسك كالمجانين ؟

وترأت أمامه في فستانها البيتي الفضفاض تنضح صحة وشبابا . هتف

بخوف :

— أنت ؟!

— دون غيرها وبجميع ذكرياتها ..

— ذكريات أليمة لم يبرأ قلبي بعد من عذاباتها ..

— يا للعجب !

— وبسببها عافت نفسي الزواج فبقيت أعزب حتى النهاية .

— ولكنك لم تفعل إلا أن عشقتني .

— رغم أنك كنت بمنزلة الأم ، امرأة أوى ..

— في مذهب العشق يجوز كل شيء ..

— ما زالت الجريمة تنغص على صفوى .

— أتسميها جريمة ؟

— أنت التي أغريتني !

— كلانا أغرى صاحبه ..

— إنها ذكرى الجحيم في حياتي ..

— وهي أسعد ذكرياتي .

— يا لك من ..

— امرأة طيبة كما أنك إنسان طيب ..

— أهذا يمثل رأى هناك ؟

— كيف لم يهلك ؟ .. عيد ميلاد سعيد ..

وتوارت عن ناظريه . تبليبل فكره . رغم ذلك داخله إحساس دافئ

الآن .. ~~الآن ..~~ وقال الشاب ..

— من يدري فلعل بالفت أيضا في شجاسة النفس عن غرق ذلك الشاب

المجهول ..

مع تنهيدة عميقة . رأى الشاب يقف غاريا يحملق في وجهه ويقول :

— تقول إنك بالفت ؟

فقال بأمل :

— بت أعتقد ذلك ..

— يا لك من فاجر !

ترامقا طويلا حتى انقبض قلبه . وقال الشاب :

— تركنتي أغرق يا نذل ..

— لا ذنب على ، أنت وحدك المسئول .

— غلبني الموج وخانتني قواى فاستغثت بك ..

— لم أكن أحسن السباحة ..

— بل كنت تحسنتها بالقدر الكافي لإتقاذى .. ولكنك هربت يا قاتل ..

— لا تقل ذلك ، القانون نفسه في ذلك العهد ..

— القانون !، إن الغرق في ذمة المتفرجين !

— حسبت أن ذلك الموقف قد تصور لك في صورة جديدة ..؟

— ولم يتصور في صورة جديدة ؟

— هكذا انقلبت الأحكام في عالمكم !

— لقد انقلبت في رأسك بحكم الخوف ، وإني نادم على مخاطبتك ..

وغادره على حال من القلق فقد معها توازنه ، اضطرب صدره وجاش

بالمتناقضات ! وقال :

— أى الأفعال خير وأنها شر ؟ ، وكيف يهتدى ضميرى في هذه الغاية

المتلاطمة بالغرائب !، آه لو كان أبى حيا !

وإذا بالصوت الذى طال انقطاعه يقول :

— أشكر لك حسن ظنك .

غض البصر تحببا للمواجهة وعقل الخجل لسانه فلم ينطق . وقال الأب بنبرة

لم تخل من تهكم :

— أراك تستعد للاحتفال بعيد ميلادك !

- ولما لم ينس سألته :
 — ماذا يمنعك من الكلام ؟
 فأجاب بصوت متهدج :
 — الذنب وإنه لكبير !
 — أما زلت تذكر ذلك ؟
 — وكيف لي بالنسيان ؟
 — ولكنني لم أحضر لإحياء ذكريات تافهة .
 فتشجع قائلاً :
 — لقد اختل الميزان وانفطر العقد .
 — وتروم الاعتداء إلى أساس مكين ؟
 — بكل ما أملك من قوة .
 — حسن ، ركز فكري جيداً وأجب بأمانة على ما أسألك عنه .
 — مستجدي طوع أمرك يا أبى .
 فهتف بإنكار :
 — لست أباك !
 — لست أبى ؟
 — وتصورك هذا يقطع بأنك ما زلت تعيش في عصر حجري !
 — ولكنها علاقة حقيقية لا يكرها أحد .
 — بل علاقة حامية تحميك من الروبة المستحقة .
 — نعم بأن عليه أن يخبره لا أن يقاتله فقال :
 — معذرة من خطأ وقعت فيه بحسن نية .
 — أجبني ، ما أهم حدث وقع لك في مطلقك ؟
 — لا أذكر ، لعل مفلوكتي مرت دون أحداث تستحق الذكر .
 — إجابة عمياء تنذر بعواقب سيئة .

- الحق أبى .
 — أجبني ، ما أكبر خطيئة ارتكبتها في شبابك ؟
 — استعد ولم يجب ، فقال الرجل :
 — ما زلت تخجل مما لا يدعو للخجل وهو نذير بأنك ستباهي بما يجدر بك
 أن تخجل منه .
 — أسف .
 — أجبني ، كم شخصاً قتلت ؟
 — لم أقتل أحداً والحمد لله .
 — ألم يشرع أحد في قتلك ؟
 — كلا ، ماذا جعلك تظن بي ذلك ؟
 — تنهد الأب بصوت مسموع فقال الرجل :
 — عشت حياة طيبة .
 — طيبة !
 — لم يشبهها سوى أخطاء بسيطة ، مثل ذلك .
 — لا يهمني أن أسمع إلى أخطاء بسيطة .
 — وقدمت للمجتمع خدمات لا بأس بها .
 — لا بأس بها !
 — ما الذى يهملك حقاً يا أبى ؟
 — أبى مرة أخرى !
 — معذرة !
 — ذهب العمر لقاء .
 — ماذا تريدني على أن أفعل ؟
 — يا لصيغة لقاء ينتهي بالسؤال الذى بدأ به !
 — لكلك لم تقل شيئاً .

— قلت كل شيء ..
 واحتفى الأب . احتفى دون أن تقع عليه عين الرجل . ولكنه شعر بذهابه .
 وشعر بخيبة أمل مريرة .
 غير أنها لم تطل . وجد نفسه يميل إلى تصديقه فيما قال من أنه قال كل شيء .
 ما عليه إلا أن يستعيد أقواله .
 ومضى يتذكر . وقال لنفسه :
 — ليس هذا العيد كالأعياد السابقة ، رأسى يدور ، وينثر في دورانه ما استقر
 فيه من أفكار ، كل شيء يتطاير ..
 ومضى يتذكر . ولكنه عوجل بحضور الممرضة . تصافحا بمودة . راقبا
 وهي تعد الحقنة معجبا بشبابها الغض .
 خلع الجاكete فحسر كم القميص مسلما ذراعه . حقنته وهي تقول :
 — بالشفاء ..
 — شكرا .
 أعادت الحقنة إلى العلبة المعقمة فقال :
 — ابقى لتشتركي في حفل عيد ميلادي .
 — ولكني لا أعرف المدعوين .
 — رجلا وزوجتهما ، لم يبق سواهم .
 — ولكني لم أحضر هدية ..
 — إنك أنت الهدية ..
 فأشارت إلى ثوب العمل المختشم وقالت :
 — لست مستعدة .
 — جميعنا في الحلقة السابعة والثامنة فلتكوني أنت صليتنا الحميمية بالحاضر ..
 ترددت بعض الشيء فأمسك بمعصمها قائلا :
 — لن أدعك تذهبين .

فجلست على المقعد التالي لمقعده وهي تبسم . سألتها :
 — كل شيء على ما يرام ؟
 — نعم .
 — متى تتزوجين ؟
 — في نهاية الشهر القادم ..
 — سأفتقدك كثيرا ..
 — ألم تشبع بعد ؟
 وضحكت فابتسم ابتسامة لا تخلو من فتور . وجاء المدعوون . الصديقان
 وزوجتهما . صفت الهدايا فوق الخوان . تبودلت القبلات . جلجلت
 الضحكات . تم التعارف بين السادة والممرضة . ملأ الرجل الكئوس بنفسه رغم
 شغل الخادم العجوز وراء البار . اختلطت التهانى بالنكات بالأحاديث . اشترك
 الرجل في الحديث ينصف عقل . بدا رغم التظاهر جادا أو متفكرا . ولم يجلس
 كما جلسوا . جعل يذرع المكان حيناً ، وحيناً يقف . وقال له الصديق الأول :
 — اجلس ، وقوفك يرهقنا ..
 وسألته زوجة الصديق الآخر :
 — لم لا تجلس ؟
 فابتسم ابتسامة غامضة وقال :
 — شيء يحدثني بأنه عيد الميلاد الأخير .
 وأكثر من صوت قال :
 — قال الله ولا فالك .
 فقال بإصرار :
 — سوف يتبين لكم صدق قولي .
 فسأله الصديق الأول :
 — ماذا بك ؟

وقالت زوجته الصديق الآخر :
 — لست كالعهد بك .
 والتفت نحو الممرضة متسائلة :
 — أهو على ما يرام ؟
 فأجابت الفتاة :
 — على خير حال .
 فقال له الصديق الآخر :
 — إذن فدع ما لله لله واجلس واهنا بالعيد .
 فقال الرجل :
 — كلا .
 — كلا ؟
 — قررت أن أودى واجبى .
 — أى واجب يا هذا ؟
 — قبل أن تفتل الفرصة إلى الأبد .
 — إنه الويسكى بلا شك !
 — لا وقت للهنر .
 — ولكنها ليلة عيدك .
 وقالت زوجة الصديق الآخر :
 — صديقا متع ، هذا كل ما هنالك .
 تحرك الرجل إلى الطرف الآخر من البهو . وضع قدمه على كرسي ، اعتمد
 بقدمه عليها . وجعل ينظر نحوهم باهتمام ، منفلا بصره من وجه لوجه ، وقال :
 — الأيام تمر ، وأنتم تتقدمون في العمر ، لا بد من مواجهة صريحة بينكم وبين
 قال الصديق الأول صاحبا وهو يرفع كأسه :
 — صحتك !

وقالت زوجة الصديق الآخر :
 — عندى كلمة من الشعر المنثور ، متى يسمح لى بالقائها ؟
 فقال الرجل بوجه جاد :
 — لا يحدث غيرى الليلة .
 — ولكنها ليلة عيدك !
 — الأخير !
 — دعنا من هذه السيرة المزعجة !
 — اسمعوا ، لقد شهدت مداولة قضائية ثم فوضت فى التحقيق والحكم
 والتنفيذ !
 — أراهن أن ذلك كله سيتمخض عن فكاهة رائعة !
 — أشك فى ذلك كل الشك .
 فقال الصديق الأول :
 — أقترح أن نجاريه حتى النهاية .
 فقال الصديق الآخر :
 — عظيم ، اعتبرنا ماضين فى محكمتك !
 — إنكم كذلك أردتم أم لم تريدوا .
 — فماذا تروم منا ؟
 — قلت إن الأيام تمر وإن الأعمار تتقدم ، ولا بد من مواجهة صريحة .
 — لكن مواجهة صريحة .
 فأشار إلى الرجلين وقال :
 — أحيانا ، كم شخصا قتلنا ؟
 فصاحوا بالصيحة : انظر حتى سكتوا ثم قال :
 — أحيانا ، لم لم تتعرضا للقتل حتى الآن ؟
 فصاحوا بالصيحة مرة أخرى ، ولما ساد السكون قال :

— أجيبا ، لم لم تسجنا على الأقل ؟

وقالت زوجة الصديق الآخر :

— ألم أقل لكم انه سيتمخض عن فكاهة رائعة ؟

فقال الرجل :

— إني مفوض لقتل من لم يقتل أو يقتل أو يسجن !

فنهتف الصديق الآخر :

— يا عدو الأخيار !

وقال الصديق الأول :

— وأنت خبرنا متى قتلت أو قتلت أو سجننت ؟

وقالت زوجة الصديق الأول متضحكة :

— ونحن ألا نستحق القتل أيضا ؟

فقال الرجل بخمونة :

— نطقك بالحق يا سيدنى !

— حقا ؟

— أنسيت الحب الذى ألف بيننا فى الصبا ؟

ولأول مرة تغير الجو . تهيئت الوجوه فى ذهول . وصاح الصديق الأول

غاضبا :

— أفقدتك عقلك وذوقك ؟

فقال الرجل متحد :

— لا مفر من الحقيقة مهما طال الزمن ، كان حينها حقيقة ولكن تصادف أنك

كنت هى التى قتلتها فقال لك أول ما ، ولا بالحقيقة تها وتسلم !

— مجنون ، وضح لنا ما غيظ من أمرك .

— انهارت واستسلمت ، لم تقاوم ، ثم استسلمت مرة أخرى فيما بعد ، ها

أنا أصرحك بأننا — أنا وهى — اشتركتا فى خيانتك زهاء خمسة أعوام !

انتشر الصديق الأول واقفا ، هم بالانقضاض على الرجل . ولكن الرجل

أخرج مسدسه من جيبيه ، سدده نحوه ، ثم أطلق النار ، فخر الصديق صريعا

وسط هدير من الصراخ . حتى الخادم العجوز صرخ . وصاح الرجل ويده

بالمسدس ترعش .

— ليلزم كل مكانه !

انكبت الزوجة فوق زوجها مجهشة فى البكاء فتساءل ساخرا :

— لم تبيكين ؟ ، تزوجته على رغمتك وخنته بإرادتك ، ما أبيع الدموع الجارية

فى أحاديث وجهك ، أتودين اللحاق به ؟

فصاحت فى غضب :

— مجرم .. مجرم ..

ولكن رصاصة استقرت فى رقبتها قبل أن تكمل كلامها فتهاوت إلى جانب

جثة زوجها مضرجة فى دماؤها . حملت فيه العين فى فزع أخرس فقال :

— أشهد أن القتل أكبر تحد لقضبان الحياة ..

فقال الصديق الآخر بصوت سائب لا ضابط له :

— ماذا دهاك أيها الصديق الكريم ؟ .. أنسيت أننا جئنا للاحتفال بعيد

ميلادك ؟!

فقال مستردا ذاكرته من صدئ الحدث :

— أنت أيضا لم تقتل ولم تقتل ..

فقال الصديق برعب :

— كسائر الملايين ، وإلا ما بقى على وجهها أحد ، ماذا دهاك أيها الصديق

الكريم ؟

وقالت الزوجة وهى ترتعد :

— نحن أصدقاؤك ، أنسيت العمر الطويل ؟ ، أنسيت مودة نصف قرن ؟!

فحدجها بنظرة احتقار قائلا :

— وأنت أيضا ، ما تزوجت منه إلا من أجل ثروته ، أنت أيضا استسلمت ،
لا أحد منكم يحترم المقاومة !
— أتحاسنى على عواطف طفولية اندلعت في قلبي منذ نصف قرن ؟
— إنى أعرف عشيقك أيضا !
— فليسا معك الله ..
وقال له الصديق متوسلا :
— دعنا نذهب !
فسأله بازدرأ :
— لم كم تغضب لعرضك ؟
— دعنا نذهب بحق صداقة العمر !
— لقد بلغنا نقطة لا يجوز التراجع عندها .
— أقتل الأبرياء بالجملة ؟
— لا يوجد برىء واحد ..
أخفت الممرضة وجهها بين يديها على حين هتف الخادم العجوز من وراء
البار :

— سيدى .. اتق الله العظيم !

فقال الرجل بارتياح :
— أحسنت أيها العجوز .

وأطلق الرصاص مرتين فسقط الصديق ثم سقطت زوجته . لم يعد يسمع إلا
نحيب الممرضة الحسنة ، فنظر الرجل نحوها وتساءل :
— لم قاتلت الأعداء يا سيدة الخط ؟

فواصلت النحيب دون أن تجيب فقال :

— لعله ضميرك الذى أغراك بقبولها ؟

فقالته وهى تنشع :

— قبلتها إكراما لك ..

فقال متقرزا :

— ولكنك تبغضينى كالموت !

— أنا ؟ !

— أجل ..

— لا تظلمنى ..

— اختلست مرة نظرة إلى المرأة ونحن في غمرة العناق .. فرأيت الاشتزاز

مطبوعا على وجهك كالقطران !

— أبدا .. أبدا ..

— عرضت عليك ذات يوم أن تقبلى الزواج منى ولكنك اعتذرت ..

— كنت مخطوبة كما تعلم ..

— أجل ، والحق أنى أكبرتك .

— ليس إلا أنى كنت مخطوبة ..

— ولكنك قبلت أن تكونى خليلتى نظير مكافأة من المال تستعين بها على

إعداد نفسك للزواج ..

— سيدى .. !

— لم تقاومى ! ، ماذا يبغض لكم المقاومة ؟

— لكنك سعدت بقرارى على أى حال !

— هذا حق ، ولذلك فإنى أحكم عليك بالإعدام .

وثبت الجميلة فى استغاثة فزعة ولكن الرصاصة عاجلتها فهوت على وجهها .

أنزل قدمه من فوق الكرسي وتقدم ببطء وهو يتفحص الجثث . ومد بصره إلى

الخادم العجوز وراء البار فترأى شاحب الوجه بلون الموت . قال له :

— أيها العجوز الطيب ، ما رأيك فيما شهدت ؟

لم يستطع الرجل أن ينبس بكلمة فقال :

— بدأت الخدمة في بيتي شابا وها أنت تقف كالغصن الذابل الجاف في أرذل العمر ..

— هز العجوز رأسه دون أن ينطق فقال :

— كم أسأت إليك ، حتى العذاب ذقته أحيانا على يدي ..

— سيدى ..

— ولم يخطر لك مرة واحدة أن تهجر بيتى ..

— زغم كل شيء كنت طيب القلب ..

— لا تكذب ، كم تورطت معي فيما يليق وما لا يليق ، كم شهدت هنا ألوانا

من الدعارة السافرة !

— أفضل لك مع ذلك لا يمكن أن تنسى ..

— ولا مرة واحدة فكرت أن تعاملني بما أستحق ؟

— إلى خادمك المطيع يا سيدى .

— لذلك أحكم عليك بالإعدام ..

حاول العجوز أن يخفي وراء منصة البار ولكن الرضاضة نفذت في رأسه .

تنهد الرجل بعمق . تنهد بعمق حتى ملأ صوت تنهده البهو ..

شعر بالضوء يشع وراء جفنيه المغلقين ففتح عينيه . رأى الخادم العجوز واقفا

والبهو متوهجا بالضوء فنزع نفسه من جلسته المريحة وهو يقول :

— جاء المدعوون ؟

فقال العجوز :

— جاءت الممرضة ..

ذهب الخادم . دخلت الممرضة مشرفة الوجه . تبادلوا ابتسامة عريضة . خلع

جاكته وحسر كم القميص وهي تعد الحقنة . قالت :

— عام سعيد ..

فقال وهو يسلمها ذراعه :

— إني أدعوك للحفل الصغير .

فقالت وهي تمسح بقطنة مبللة بالكحول موضع الغر :

— أود ذلك ولكنى على موعد مع خطيبي .

— إني أدعوه معك ، أرجو أن تبلغيه ذلك ..

— سيسره أن يلي دعوتك فهو لا ينسى مساعدتك في نقله إلى القاهرة ،

ولكنه ليس على ما يرام ..

— مريض ؟

— كلا .. ولكن حالته النفسية ليست على ما يرام ..

— تلك أعراض قمر ، متى تزوجان ؟

— قريبا على أى حال .

— سنأفقدك كثيرا ..

فضحكت قائلة :

— حذار ، سأبدأ بالزواج حياة جديدة !

— يا لك من استغالية فاتنة ولكنى لن أنسى السعادة التي حظيت بها على

يديك !

— أكرر التهنية ..

وذهبت وهو يتبعها عينيه ثم أجال بصره في البهو ، الأرض والمقاعد والبار

ثم تنهد بعمق . ونظر في الساعة ثم تتم :

— رحلة طويلة حقا في أقل من خمسين دقائق !

ومضى يذرع البهو ولكن الانتظار لم يطل فما لبث أن جاء المدعوون .

رجالان وامرأتان في الحلقتين الثامنة والسابعة . صفت الهدايا فوق الخوان .

تبودلت القبلات . اتخذوا مجالسهم ومضى الرجل مלא الكؤوس بنفسه .

— لم يبق إلا نحن الخمسة ..

— ليرحم الله الراحلين .

وقالت زوجة الصديق الأول :

— ثمة تنبيه هام أسوقه حرصا على سهرتنا الغالية .

— ألا وهو ؟

— منع الكلام في السياسة أو الحرب .

— عين الصواب .

— إنه يمتص الحيوية ، يجعل من السمر حديثا مرهقا ، يدفع إلى طريق مسدود ، لنرحم أنفسنا هذه الليلة ..

— أشك في إمكان تحقيق هذا المطلب البريء ، سنتظاهر بالامتنثال ، وستحدث في هذا أو ذاك من الموضوعات ثم نجد أنفسنا ونحن لا ندرى في الجبهة ..

— وحتى إذا وقفنا إلى اختيار موضوع ما فلن نلبث أن نجد الكلام لغوا لا معنى له ولا طعم ، وإننا في الواقع إنما نهرب من الحديث الوحيد المقضى به علينا ، ولن نجد بدا في النهاية من الرجوع إلى الجبهة ، وتشعب الآراء والاحتمالات ، وتطاحن فروض الحرب والسلام ، وتمضي الليلة ونحن غائضون في شرك حفرناه بأيدينا .

فقالت المرأة بإصرار :

— إذن فلا نصيب من نفسي ملاكا حارما للسهرة ، أطلق صفارة إنذار كلما آنست ميلا نحو الحديث الأبدي .

— تجربة لا بأس بها ولكنني أتنبأ بالفشل من قبل أن تبدأ ..

— صحتكم .

— صحتك .

— ولكن ما بال صاحب العيد يبدو شاردا ؟

— أنا ؟

— أجل : يوجد شيء في رأسك الكريم ..

فضحك قائلا :

— الحق أني خلمت حلما غريبا .

— خير إن شاء الله .

— ولكن ماذا أقول ؟

— قل ما رأيت ونحن على تأويل الرؤيا قادرون .

فقال وهو يرمقهم بنظرة غريبة :

— رأيت أنني قتلتمكم جميعا رميا بالرصاص .

ضحوا جميعا بالضحك ..

— خير ما فعلت فإننا أصبحنا كالخيل القديمة ترمى بالرصاص على سبيل الرأفة .

— وكنت أقتل وأنا في غاية من المرح ..

— يمكن تفسير الأحلام بأضدادها فمعنى الحلم أن تمنى لنا طول العمر ..

عظيم .

— أما إذا اعتمدنا في تفسيرنا على العلم ، على فرويد مثلا فسنعكش عن رغبات جنسية مكبوتة لا يحسن الجهر بها ..

— ما كان في الوضع أن أكتبها طيلة ذاك العمر .

— صحتك ..

— صحتكم .

— وحتى النساء ؟

— حتى النساء !

— يخونك العيش والملح .

— حتى الخادم المعجوز والمرضة !

— لم يكن حلما ولكنه كان استمرارا لأحاديث الحزب .

— لعله .

— ولكن لم تفضلت بقتلنا ؟

— لم أعد أذكر فسرعان ما تنسى تفاصيل الأحلام ..

— تذكر السبب فإننا نتوقع أن يكون طريقا ..

— لا أظن ..

— لا شك أننا تجدناك بطريقة ما ؟

— ربما .

— ماذا فعلت بعد أن أجهزت علينا ؟

— لا أذكر .

— ألم تشعر بالندم ؟

— لا أظن .

— اسمح لي أن أقول لك ..

ولكن الخادم العجوز دخل ليعلم عن حضور المرضة وخطيئها . وذهب فجاءت المرضة يتبعها خطيئها . وتم التعارف على يد الرجل . واتخذ القادمون جلسيها متجاورين والشاب يتسم ابتسامة ودودة ربما ليخفي كآبة لم ينجح في إخفائها . وقدم لهما الرجل كأسين وهو يقول :

— صحكما ..

وقال لهما الصديق الأول :

— نشكر كما على حضور كما فإن مجلسنا يحتاج إلى دم جديد ..

فقال الرجل :

— إنها شابة ممتازة وهو شاب ممتاز ولكنه يبدو على غير ما يرام .

فقال الشاب :

— إني على خير حال يا سيدي .

— حقا ؟ ما رأيك يا آنسة ؟

فقالت بشيء من الحزن :

— إنه كما تقول يا سيدي ولكن لا يجوز أن نكدر صفو الحفل بهمومنا .

وسأل الصديق الثاني :

— أهو مريض ؟

— كلا يا سيدي ولكن يتأبه من أن لأن شعور مجهول بالكآبة ..

— كيف تتأب الكآبة من أنت خطيئته ؟

فقال الشاب محتجا :

— إني بخير ..

فقال الرجل :

— لست كما تقول ..

— سيدي .. لا يجوز أن نكدر صفوكم ..

— صارحتي يا بني فأني بمنزلة الوالد ..

وقالت زوجة الصديق الأول :

— لعلنا نجد في حديثك ملامحا من حديث آخر يطاردنا .. وتساءل الصديق

الثاني :

— اما علة كآبتك ؟

فأجابت المرضة :

— بلا سبب ..

وتساءل الصديق الأول :

— لعله خلاف في العمل ؟

فأجاب الشاب :

— لا شيء ألبتة ..

— أو بوادر قلق مما يخطر للمخبيين ؟

— لا شيء ألبتة يا سيدي ..

ولم تملك الممرضة أن قالت :
 — قال لي ونحن في الطريق إلى هنا إن الانتحار فكرة طيبة !
 فهتف الشاب :
 — أتعيدين كلمة رددتها بلا قصد ولا معنى ؟
 — لقد خفت خوفاً حقيقياً ..
 — ما أغرب أطوارك ..
 — اعذرنى ..
 — إننا نفسد الجو ..
 فقال الرجل :
 — لا داعي للحرص يا بني ، فأنا نفسي حلمت منذ حين بأني قتلت جميع
 المدعوين بما فيهم خطيبتك ، وحتى خادمي العجوز ..
 وضح المدعوون بالضحك ، حتى الشاب ابتسم ، وقال الرجل :
 — اشرب كأسك ، اطرد عنك الحرج ، وصدقني فأني أرحب بك ترحيباً
 خاصاً وأشعر بأنك تشاركني في موقفى الغريب ..
 والتفت الرجل نحو أصحابه وقال :
 — معذرة فأني أتوهم أن لدى كلمة طيبة يحسن أن تقال لصديقنا الشاب ،
 فاستمعوا بوقتكم دون تأجيل ..
 فقال الصديق الأول :
 — إنى أتوقع حديثاً طريفاً جديراً بالملاحظة وبخاصة وأنه لا يحرم الأكل أو يمنع
 الشرب !

فنظر الرجل نحو الممرضة وقال :
 — أنت مشغولة ، كيف تركته يفرق في الكآبة ؟
 فقالت الممرضة :
 — أعتقد أننا سعداء ، أو هذا ما اعتقدته ..

فسأل الرجل الشاب :
 — لم أنت كئيب ؟
 — إنها تبالغ يا سيدي .
 فقالت الممرضة :
 — لم أبالغ قط ..
 فقال الرجل :
 — نحن في الدور الخامس والثلاثين ، وقد لقتنى ذلك حكمة ..
 فسأله الصديق الثانى ضاحكاً :
 — أذلك علاقة بجرمة قلنا ؟
 وأخذ الرجل الشاب من يده ومضى به إلى النافذة ثم قال :
 — من هذا الموضع المرتفع ترى أكثر من نيل يجرى في القاهرة ..
 فقال الشاب :
 — منظر عجيب حقاً ، ولا شك أنه في أثناء النهار أعجب ..
 — من هنا ترى الحدايق كأنها أشكال هندسية دقيقة مرسومة على سطح من
 الورق ..
 — ربما .. ولكن أرجو ألا تصدق أنى فكرت حقاً في الانتحار ..
 — السيارات لعب أطفال ، الناس فئران ، أما الجبل والمساكن فبناء هائل
 متصل التكوين تنبثق منه هنا وهناك قباب ومآذن ، الطرقات تختفى تماماً ، كما
 يختفى تفرد الناس وتميزها ولا أثر يظهر لهمومها ومشاكلها وأفراحها وأتراحها ..
 — ما أعجب ذلك كله !
 — ما أجمل أن نتعامل مع الشمس والهواء والعلو ! ..، أيضاً بك حديثى ؟
 — أبداً ، أخشى أن يضايقك وجودى ..
 وقالت زوجة الصديق الأول :
 — ارفع صوتك قليلاً يا عزيزى فنحن أيضاً في حاجة إلى كلمتك الطيبة ..
 (شهر العسل)

فقال الرجل للشباب :
— إني سعيد بك ، ولعل أستطيع أن أقنعك كم أفتنت نفسي بالحياة فوق كل
شيء !

— فوق كل شيء ؟
— أعني أن تنظر إلى همومك من فوق كما تنظر إلى المدينة تحتك فتراها أشكالا
بجردة لا فاعلية لها ..

فهتف الصديق الثاني :
— أحسنت أيها الحكيم ..
ولكن الشاب قال :
— هذه مخاطرة قد تخطر أحيانا للمثقل بالهموم للراحة ولكن لا موضع لها بين
الحقائق .

فقالت زوجة الصديق الثاني مخاطبة الشاب :

— إنها وصفة مجربة فلا تستهن بها يا عزيزي .

وقال الرجل :
— أجل .. لا تستهن بها ، ما أجمل أن نحيا فوق كل شيء !

— ولكننا نخلقنا لنعيش تحت ..

— ألا تستطيع أن ترتفع ؟

— لا أظن ، الملايين تعاني تحتها ..

— لا يغير ذلك من جوهر الحقيقة ..

— أشك في ذلك يا سيدي ..

فأشار الرجل إلى المدينة المرصعة بالأضواء وقال :
— ...

بالنسبة للراصد من هذه النافذة فلا يحدث شيء على الإطلاق ...
— لعله ضعف رؤية يا سيدي ...

فضحك البهو بالضحك ، وضحك الرجل أيضا وقال :
— الشباب مرحلة خطيرة ، يأنف من المهادنة ويسخر من الحكمة فليس
أمامه إلا إحدى طريقين ، فإما الانتحار أو الثورة ..

وتساءل الصديق الأول :

— والحب ، أليس طريقا أيضا ؟

ولكن الشاب تساءل :

— الانتحار أو الثورة ؟

— وكلاهما شيء واحد للراصد من النافذة .

— النافذة !

— نبرتك ساخرة ! ، أخبرني بصدق عما جاء بك إلى هنا ؟

— المشاركة في عيد ميلادك ..

— وماذا أيضا ؟

— ربما رغبت أيضا في شيء من الراحة .

— علامة سيئة .

— سيئة ؟

— تقطع بآنك غارق في الهموم .

— لا تخلو حياة من ذلك .

— المهم هو موقفنا منها ، أليس كذلك ؟

— أن نواصل الصراع .

— أرجو ألا تردد أمامي شعارات محفوظة .

— لا أتحجل من ترديد الشعارات إذا كانت مجدية .

— وأنا رجل مجرب ، وقد حققت لنفسي نصرا على الدنيا ، ومن واجبي أن

أفسي بالسر المن هو في حاجة إليه ...
— أشكرك ..

- ألا تصدقني ؟
- إنني متلهف على معرفة السر .
- وقال أكثر من صوت :
- ونحن متلهفون أيضا .
- فقال الرجل :
- في الأصل كانت الهموم .
- في الأصل ؟
- بدأت التجربة والهموم تقصم ظهرى .
- أى هموم من فضلك ؟
- لا أهمية لذلك ، الفراق ، العقوق ، الدينس ، أشجان الوطن ، زلزال
- في يوغسلافيا ، لا تهتم بالأسماء ، كانت الهموم قد قصمت ظهرى .
- وبعد ؟
- استولى على الإعياء والإرهاق ، وذات يوم وجدتني أطل على المدينة من
- هذه النافذة ، عند ذلك أهمت الحقيقة دفعة واحدة ..
- الحقيقة ؟
- وهى أن الهموم لا وجود لها .
- أين ذهبت ؟
- لم أر إلا مدينة مجردة ..
- المدينة نفسها تختفى إذا ارتفعت درجة مناسبة .
- مدينة مجردة ولا أثر للهموم .
- محض خيال .
- أبدا .
- الواقع أن الهموم تستقر في أعماق نفوسنا .
- ولكنها تتلاشى إذا نظرت من عل .

- مطلب مستحيل .
- ولكننى حققته وانتصرت ..
- أتعنى أنه لم يعد يحزنك شيء ؟
- بلى ..
- هذا يعنى أنك لم تعد من البشر .
- أكرر التحذير من ترديد الشعارات .
- ولكنها الحقيقة .
- لا حقيقة إلا تجربتى الظافرة .
- تخيل — لا سمح الله — أنك فقدت أعز ما تملك .
- جربت أقطع من ذلك ، أتحداك أن تميز من موفقك هذا بين القبر
- والبيت ..
- ذاك عزاء عقلى لا شأن له بالأعصاب .
- الأعصاب تدعن في النهاية للنافذة .
- لا أصدق ..
- فقالت زوجة الصديق الثانى :
- يجب أن تصدقه .
- فقال الشاب للرجل :
- إنه يعنى لو صح أنك لم تعد حيا .
- أو أننى أحيأ فوق قمة الحياة .
- لعلك لم تعرف ضراوة الحياة الحقيقية .
- عجزت بها وخبرت .
- إذن فأنت أسعد رجل في العالم .
- نحن نتحدث عن الحكمة لا السعادة .
- قد تكون حكيما ولكنك — ومعدرة — لست حيا .

— ما زالت أنفاسي تتردد .
 — حكمتك خليقة بقتل بواعث الحياة الحقيقية .
 — ها قد عدنا إلى الشعارات .
 — بقتل التقدم .
 — لم أخل يوما بواجب .
 — ولم تؤدى أى واجب ؟
 — لأننى حى ولأنه واجب !
 — إنك تطرح علينا لغزا ؟
 — بدأت تفهمنى ..
 — ولكن حديثك يخاصم الواقع ويبدو معقدا غير مفهوم .
 — قولك هذا يمكن أن يصدق على أى شيء فى الحياة .
 — يؤسفنى أننى لا أستطيع الإفادة من حكمتك .
 — أعترف لك بأننى قلق عندما وقع بصرى عليك .
 — لم ؟
 — شيء حدثنى بأنك مقدم على شيء خطير !
 — أى شيء هذا ؟
 — أصارحك بأن خاطر الانتحار خطر لى .
 — فكرة بعيدة عن الواقع بعد هذه النافذة عن الأرض .
 — ولذلك أطلعتك على السر الذى يقتل فكرة الانتحار .
 — شكرا لا حاجة لى إليه ، ثم إن لى وسائل الخاصة .
 — عظيم .. عد إلى عملك وانضم .
 — وتأهب الجميع لسنى التعليقات . أما الرجل فلم يرح مكانه أمام النافذة . ثم
 صعد فوق مقعد قريب .
 — أشاعت حركته الدهشة فتساءل الصديق الأول : ..

— أتتوى إلقاء خطبة ؟
 — من موقفه فوق المقعد انتقل بخفة لا تناسب سنه إلى حافة النافذة فوقف
 عليها مستندا بيديه إلى ضلعها . وقف الجميع فى ذهول وصاح أكثر من صوت :
 — ماذا تفعل !.. احترس ..
 فى اللحظة التالية رأوه وهو يرمى بنفسه فى الفضاء فيختفى بسرعة خاطفة
 خلفا وزاءه صرخة محشوجة كالعواء ..



في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت

في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت

في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت

في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت
تنتهي في تلك الحادثة التي كانت

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
ممس الجنون	١٩٣٨	العاشرة ١٩٧٩
عبث الأقدار	١٩٣٩	الحادية عشرة ١٩٨٥
رادوبيس	١٩٤٣	العاشرة ١٩٨١
كفاح طيبة	١٩٤٤	الحادية عشرة ١٩٨٥
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	الثالثة عشرة ١٩٨٧
خان الخليلي	١٩٤٦	العاشرة ١٩٧٩
زقاق المدق	١٩٤٧	الحادية عشرة ١٩٨٥
السراب	١٩٤٨	الثالثة عشرة ١٩٨٧
بداية ونهاية	١٩٤٩	الخامسة عشرة ١٩٨٧
بين القصرين	١٩٥٦	الثالثة عشرة ١٩٨٦
قصر الشوق	١٩٥٧	الرابعة عشرة ١٩٨٧
السكرية	١٩٥٧	الثالثة عشرة ١٩٨٧
الرص والكلاب	١٩٦١	التاسعة ١٩٨٠
السمان والحريف	١٩٦٢	التاسعة ١٩٨٥
دنيا الله	١٩٦٢	السادسة ١٩٨٧
الطريق	١٩٦٤	الثامنة ١٩٨٤
بيت سئ السمعة	١٩٦٥	السابعة ١٩٨٣
الشحاذ	١٩٦٥	الثامنة ١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	١٩٦٦	السابعة ١٩٨٧
ميرامار	١٩٦٧	الخامسة ١٩٧٩
خمارة القط الأسود	١٩٦٩	السابعة ١٩٨٥
تحت المظلة	١٩٦٩	السادسة ١٩٨٤

صفحة

- ١ — شهر العسل ٣
- ٢ — العالم الآخر ٢٩
- ٣ — فنجان شاي ٦٣
- ٤ — روح طيب القلوب ٩٧
- ٥ — موقف وداع ١٢٧
- ٦ — وليد العناء ١٥٥
- ٧ — نافذة في الدور الخامس والثلاثين ١٨٧

كلمة الناشر

تعرفت بالأستاذ نجيب محفوظ — أول معرفتي به — سنة ١٩٤٣ م؛ ذلك أن شقيقى الأديب الراحل عبد الحميد جودة السحار، حضر إلى المكتبة التى أملكها — مكتبة مصر بالفجالة — وبصحبه شاب فى مثل سنه، فى حوالى الثلاثين من عمره، وقدمه إلى باسمه «نجيب محفوظ»^(١)، وقال لى: إنه يحمل معه رواية من تأليفه يرجو أن أقوم بطبعها ونشرها له.

وقدم إلى نجيب محفوظ روايته «رادوبيس»، وهى ليست أول رواية يكتبها؛ فقد كتب قبلها رواية «عبث الأقدار»، وكان قد طبعها ونشرها له الأستاذ سلامة موسى.

أخذت منه الرواية، ووعدت أن أبدى فيها رأى بعد يومين. وقرأت رواية «رادوبيس» فذهلت! فهى مكتوبة بلغة عربية رصينة وبلغية، وتختلف عن كل الروايات العربية التى ظهرت حتى ذلك الوقت؛ فجوادتها شائقة، محبوبكة بمهارة عجيبة وأستاذية مقتدرة، وتحكى قصة غرام الفرعون، أو الملك مرزق الثانى بالراقصة الفاتنة رادوبيس، واستيلائه على أملاك المعابد وأموال الكهنة، وإنفاقها على نزواته الخاصة فى بذخ شديد، حتى أطلق عليه الشعب لقب «الملك العايب». وقد انتهت الرواية بقتل الملك بسهم أطلقه عليه أحد أفراد الشعب.

والشئ بالشئ يذكر؛ فقد رأى أعوان الملك فاروق — فيما بعد — أن

(١) قال لى شقيقى عبد الحميد: إن والدة نجيب محفوظ تعمزت فى ولادته تعمراً شديداً، وأن الفرج جاء على يدي الطبيب المعروف د. نجيب محفوظ، وأنها أطلقت على ولدها اسم نجيب محفوظ، تيمناً به.

تاريخ أول طبعة تاريخ آخر طبعة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	اسم الكتاب
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	السابعة ١٩٨٧	مجموعة
شهر العسل	١٩٧١	السادسة ١٩٨٢	مجموعة
المرايا	١٩٧٢	الخامسة ١٩٨٠	رواية
الحب تحت المطر	١٩٧٣	الرابعة ١٩٨٠	رواية
الجرمة	١٩٧٣	الخامسة ١٩٨٤	مجموعة
الكرنك	١٩٧٤	السابعة ١٩٨٦	رواية
حكايات حارتنا	١٩٧٥	السادسة ١٩٨٦	رواية
قلب الليل	١٩٧٥	الثالثة ١٩٨١	رواية
حضرة المحترم	١٩٧٥	الرابعة ١٩٨٣	رواية
ملحمة الحرافيش	١٩٧٧	الرابعة ١٩٨٥	رواية
الحب فوق مضية الهرم	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧	مجموعة
الشیطان يعط	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧	مجموعة
عصر الحب	١٩٨٠	الثانية ١٩٨٧	رواية
أفراح القبة	١٩٨١	الثالثة ١٩٨٧	رواية
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧	رواية
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧	مجموعة
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	الثانية ١٩٨٥	رواية
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	الثانية ١٩٨٥	رواية
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	رواية ١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة ١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية ١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية ١٩٨٥	رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية ١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة ١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع			
قشعر	رواية		رواية
الفجر الكاذب	مجموعة		مجموعة

بالرواية تعريضاً مقصوداً بالملك فاروق ، حيث كان الشعب في مصر يطلق عليه كذلك لقب « الملك العايب » ، وأن فيها دعوة إلى الخلاص منه بقتله .
ولما حضر نجيب محفوظ ليعرف رأيي في الرواية ، أبديت له استعدادي ، بل وترحيبي بطبعها ونشرها .

واعترضتني عندئذ مشكلة الحصول على الورق الذي تطبع عليه الرواية ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية في عتفائها ، والورق معدوم تماماً من السوق .
ومهما يكن من أمر ، فقد حصلت على كمية من الورق من الجيش البريطاني ، وطبعت عليه الرواية — ٥٠٠ نسخة فقط — بناء على نصيحة نجيب محفوظ ، الذي كان يخشى أن يعرضني للخسارة ، بالأستوجب السوق عدداً أكبر .
وأخيراً وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وساد السلام ، ونشرنا لنجيب محفوظ روايات وقصص همس الجنون ، كفاح طيبة ، خان الخليلي ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ، السراب ، بداية ونهاية ، طبعنا منها أعداداً تتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف . وقد أعيد طبع كل منها حتى الآن ست عشرة طبعة أو يزيد .

حتى كان يوم من سنة ١٩٥٦ م ، إذ فوجئت بنجيب محفوظ يحضر إلى المكتبة يحمل على ذراعه كمية ضخمة من الأوراق — أكثر من ألف فرخ فولسكاب — وطلب مني أن أطبعها وأنشرها له في كتاب واحد .
وكانت هذه الأوراق تحتوي على ثلاثة نجيب محفوظ .
وكان نجيب قد عرض ثلاثيته على الدكتور طه حسين ليقراها ويبدى رأيه فيها ، فنشر عنها بحثاً مطوًلاً في جريدة الأهرام ، بشر فيه بمولاي روائي كبير في الأدب العربي ، بل مولد رائد فن كتابة الرواية العربية الحديثة .
وكان رأيي أن طبع الرواية في كتاب واحد ، يتخذ من بيعها على نطاق واسع ،

واقترحت أن تُطبع في ثلاثة أجزاء ، فوافق نجيب على رأيي .
وفعلًا ظهرت الثلاثية في ثلاثة كتب هي : بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية .

وبظهور هذه الكتب اتسعت شهرة نجيب محفوظ كأعظم روائي في مصر ، بل في العالم العربي كله .

وتنحصر عبقرية نجيب محفوظ في أن شخصيات قصصه ورواياته هي من واقع الحياة في الأحياء الشعبية بخاصة ، التي عاش طفولته يرتع بين ربوعها ، وقضى فترات كثيرة من شبابه وكهولته وهو يتردد على شوارعها وحاراتها وأزقتها ، يعاشر ناسها .. يكلمهم ويستمتع إليهم ، وفي نفس الوقت يغوص في أعماقهم ويدرس طباعهم ، ثم يصور ما ينطبع في نفسه من كل ذلك في كتاباته .

وإن كتابات نجيب محفوظ تتميز بميزة فريدة ، فهو يصغي بامعان إلى كل من يحادثه ، ويهتم بكل ما يروى أمامه ، سواء أكان حكاية غريبة ، أو قولاً طريفاً ، أو نكتة ظريفة ، فيحفظ ذلك في ذاكرته جيداً ، حتى إذا عاد إلى منزله أسرع بتدوينه حتى لا يضيع منه أو ينساه ، ثم يفيد منه بعد ذلك في كتاباته ، حيث يظهر في المكان والزمان المناسبين له .

وبعد الثلاثية تلا حصاد وافر من القصص والروايات ، ولا يزال نجيب محفوظ — مد الله في عمره — يتدفق عطاؤه للمكتبة العربية .

وإن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية في الآداب هو اعتراف بقيمة الأدب العربي بين الآداب العالمية ، ولو أن هذا التقدير جاء متأخراً عن مواعده خمسة وعشرين سنة .

سعيد جودة السحار